

### المدارس النظامية

أسباب إنشائها، منزلتها وتأثيرها.  
تعيين الأساتذة وترقياتهم العلمية.  
القبول والتخرج والإجازة الدراسية.  
الكتاب المدرسي وموضوعات الدراسة وطرق تدريسها.  
نظامية بغداد: افتتاحها وأشهر مدرسيها  
نظامية نيسابور، وأصفهان، ومرو، وهراة  
وبلخ، وطوس، وآمل، والموصل،  
والبصرة، وعسكر مكرم.  
المكتبات النظامية العامة والخاصة..  
والمخطوطات النادرة فيها .  
من المآخذ على النظاميات.



## نظام الملك ينشئ المدارس الحكومية

### دوافع إنشائها ومنزلتها :

ومهما كانت الأسباب التي دفعت السلاجقة لدخول بغداد: أهي استمرار للفتح الذي امتد من نهر جيحون حتى شمل خراسان وبلاد الجبل، أم لنجدة الخليفة - القائم - الذي استغاث بطغربك - مؤسس الدولة الأول . . وسواءً أكان لأطماع سياسية أم لأغراض دينية فإنه من غير شك انتصاراً للمذهب السنّي بطوائفه الأربع على التشيع بنحله المتعددة وبخاصة الباطني منها .

لقد تسربت الباطنية في سوريا وفارس والعراق وأخذت انفصالات الطامعين في الحكم تظهر هنا وهناك بفضل إغراء الدعاة وإثارتهم: فطاف - ناصر خسرو - ومن بعده - حسن الصباح - يدعون للمذهب الباطني الإسماعيلي، وقام - إبراهيم ينال - ثم البساسيري في الموصل وبغداد بثورتين عنيفتين كادتتا تقضيان على الخلفاء والسلاجقة جميعاً، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسهما الفاطميون في القرن العاشر الهجري بالقاهرة الفضل الأكبر في بثّ مبادئ التشيع الإسماعيلي ونشر الحكم الفاطمي .

ولم يكن إيقاف حركة الباطنية هذه فضلاً عن القضاء عليها بالأمر الهين؛ لأن جذورها قد تغلغلت في جسم البلد الإسلامي الكبير بحيث لم يبق عضو منه سليماً وبخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذّين لها بالأراء الفلسفية والبراهين المنطقية إن لم يكن من المؤسسين لها، لذلك فقد روّد دعائها بأنواع من العلم كثيرة وعميقة واتخذ هؤلاء وسياتهم الإقناع والحجة عن طريق الحوار

والمناقشة، وهو الذى ناصر «أبناء على» منذ عهد بنى أمية وهو الذى آزر بنى العباس باسم العلويين، فأمدّ المأمون بكتائب من الجيش المدرب المستميت من أجلهم حتى استقر الملك له.

وقد نشأ «النظام» - كما عرفنا - أشعرياً شافعيّاً، ولئن كانت الشافعية مذهباً لا يحسّ معتقوه بنقمة الحاكمين وقسوة المحكومين فإن الأشعرية كانت تلاقى عنفاً وشدةً منهما فى كثير من المناسبات وهم من السنّة فكيف الحال بالنسبة الى الإسماعيلية وبخاصة الباطنية... فعلى «النظام» إذا أراد لدولته الفتية البقاء ولاهدافه الإسلامية الانتشار أن يتخذ الأهبة لمقابلتهم بنفس الوسائل التى استعملوها وأن يهين لأعدائه ومسانديه الأسباب التى اتخذوها، وعليه أن يسلك الطريق نفسه كما سلكوه من تأسيس المدارس ونشر علوم الدين ومناقشة العوام بمسائل الخلاف، لأن الجيش والحرب والسياسة المجحفة وحدها لا تجدى نفعاً، فالحجة لا تفرع إلا بالحجة والعقل لا يقبل مناظراً له إلا العقل، ولا يرتضى نظيراً له إلا الفكر، ولأن الفكرة الفاسدة لا يحوها السيف بل ربما ينمىها، وأن التشريد والنفي والمقاصل تجعل من الميل للفكرة تصديقاً لها وإيماناً بنفعها وصحتها.

وقد أدرك «النظام» هذه الحقيقة وفهمها أكثر من غيره حينذاك فما عليه إلا أن يأتى مناوئيه من السبيل الذى لجوه ويفسد عليهم خططهم بتخريج جماعات مسلحة بمختلف ثقافات العصر مزودة بالإيمان مع العلم، فلم يتسلم منصبه الوزارى حتى شرع فى تأسيس مدارس النظامية فى أمهات المدن وحواضر الأمصار من العراق وفارس إلى ما وراء النهر، وسلّم منابر التدريس فيها إلى علماء الشافعية من الأشعرية، وبهذا انتصرت هذه كما انتشرت تلك ولا سيما فى إيران على يد «النظام»..

وهو فى بناء مدارس هذه لم يؤثر بلداً على أخرى، كما لم يفضل فى اختياره الأساتذة - ماداموا على مذهبه - شخصاً على آخر. وبذلك شملت رعايته العلمية حتى المدن الصغيرة النائية إذا بلغ مسمعه نبأ وجود من هو جدير بتأسيس معهد أو رباط.

وكان لكل معهد طابعه الذي تمليه عليه البيئة وما يحيط به من ظروف اجتماعية ودينية وعلمية وهيئة تدريس، وكان التنافس بين تلك المعاهد شديداً أحياناً بفضل مشاهير العلماء الذين يحاضرون فيها. وكان طلاب العلم يتعصّبون لواحد منها ويرحلون لتلقى العلم فيه وإذا تخرّجوا أصبحوا من خيرة وسائل الدعاية له.

فلم ينشأ - ابن عساكر - المتوفى سنة ٥٧١هـ مؤرخ الشام ويتسامع بنظامية بغداد حتى رحل إليها وسمع الدروس بها، ثم رجع إلى بلاده وألّف كتابه الكبير في تاريخ دمشق<sup>(١)</sup>. ولم يبلغ صيت هذه المدرسة مسامح - ابن تومرت - حتى شدّ إليها الرحال من جبل السوس في أقصى المغرب لكي يتفقّه على الغزالي والكنيا الهراسي ثم يعود إلى موطنه يناظر علماء فاس بعلم الاعتقاد على طريقة الأشعرى ويظهر عليهم ثم يذهب ويدعو لنفسه ويؤسس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين الملتئمين<sup>(٢)</sup>.

وقد نالت النظاميات شهرة واسعة ومنزلة رفيعة بين المدارس التي انتشرت حينذاك بحيث أصبح التدريس فيها أمنية كبار العلماء حتى بذل بعضهم من التضحيات الشيء الكثير في سبيل الوصول إليها. فهذا أبو حامد البروي<sup>(٣)</sup> كان إذا توسط المجلس بالمدرسة النظامية يلتفت إلى موضع التدريس وينشد معرضاً بما في نفسه من رغبة ومشيراً إليه بقول المتنبي:

بكيّت يا ربيع حتى كدت أبكيكا      وجدت بي وبنفسي في مغانيكا  
أنعم صباحاً لقد هيجت لي شجناً      وأرددُ تحييتنا إنا محبوبا  
بأى صرف زمان صرت متخذاً      رثم الفلا بدلا من رثم أهليكا

(١) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢٧٥.

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٧١ - ٧٤.

(٣) هو محمد بن محمد البروي الفقيه المتوفى سنة ٥٦٧هـ، كان يحضر النظامية والدرس بها يومئذ لأبي نصر الشاشي. (انظر: ترجمته في المختصر الجامع لابن الديبتي ج ١ ص ٣١، والوفاي للصفدي ج ١ ص ٢٧٩).

وهذا عبد الرحمن الطبرى أنفق الأموال والذخائر حتى ولى التدريس فى النظامية، قيل إنه صرف فى الرشوة من أجل ذلك ما لو أراد لبنى مدرسة كاملة<sup>(١)</sup>. ثم الفقيه - أبو بكر المبارك بن الدهان - انتقل إلى المذهب الشافعى لما وجد منصب «النحو» فيها شاغراً فتولّى التدريس عدة سنين ت ٦١٢هـ فقال فيه المؤيد أبو البركات التكريتى<sup>(٢)</sup> وهو تلميذه:

من مبلغ عنى الوجيه رسالة      وإن كان لا تجدى لديه الرسائل  
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل      وذلك لما أعوزتك المآكل  
وما اخترت قول الشافعى تديناً      ولكنما تهوى الذى هو حاصل  
وعما قليل أنت لاشك صائر      إلى مالك فافطن لما أنا ناقل

### تعيين الأساتذة وفصلهم:

وكان اختيار الأساتذة للتعليم فى النظاميات يجرى وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان «النظام» يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التى كان يعقدها فى المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس فى أحدهم علماً وذكاءً وجّهه إلى الملك الذى يريده، فالذين يكونون أهلاً للتعليم عينهم أساتذة فى الحال وأسس لهم مدرسة ومكتبة أو يوفدهم إلى ولاية سكانها جهلاء<sup>(٣)</sup>، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها، فإذا كان إلى بغداد مثلاً توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يوافق على التعيين، ثم يخلع عليه طرحة زرقاء وأهبة سوداء<sup>(٤)</sup>، ويحتفل به فى المدرسة حين يقدم لأول مرة ويحضر درسه كبار رجال الدولة والأساتذة

(١) الطبقات ج ٤ ص ٢٤٤.

(٢) ابن خلكان - الوفيات، والصفدى: نكت العميان الهيمان فى نكت العميان ص ٢٣٣ - ابن الاثير - المثل السائر ويريد بمالك، مالك بن أنس أو خازن الدار.

(٣) آل سلجوق ص ٥٤.

(٤) الأهبة - البزة الرسمية كما فى تاريخ الممالك أو السلاح التام.

والشعراء وحين ينتهى من درسه تلقى الخطب والقصائد فى الترحيب به والثناء عليه<sup>(١)</sup>. وكان على الأستاذ كذلك أن يقيم وليمة يدعو فيها زملاءه وتلاميذه ولم يخرج على هذه القاعدة سوى الغزالي فلم يؤاخذ عليه لمكانته فى النفوس<sup>(٢)</sup>. وإذا ما أريد فصل مدرس لسبب ما استدعى من قبل ممثلى «نظام الملك» وغالبًا ما كان أحد أولاده، وينزع منه كسوته<sup>(٣)</sup>.

### مراتب التدريس:

وقد جرى العرف أنه إذا تم تعيين من تتوافر فيه شرائط القدم والشهرة أن يبقى فى منصبه طوال حياته فإذا دنت منه الوفاة فغالبًا ما يوصى بمن يخلفه من كبار أبنائه أو المتفوقين من طلابه، إلا فى مدارس «النظام» فقد خرجت على المتعارف هذا لأسباب سياسية بعد أن خضعت هذه المدارس لحكمها وإرادة مؤسسها، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد خلًا للمألوف.

المدرس: كان هذا اللفظ لا يطلق إلا على المختص بتدريس الفقه وإلقاء الدروس لا يقصد بها فى العادة سوى مواضع الفقه فإذا بلغ المدرس مرحلة عالية من الشهرة فى الاطلاع والتأليف صار أستاذًا وأصبح له كرسى المادة دون منازع فيه.

النائب: وهو المكلف بالقيام فى تدريس الموضوع نيابة عن المدرس إذا كان مشغولًا بعمل إدارى أو قضائى أو لمرض أو سدّ الشاغر فى فترة لا يوجد فيها مدرس<sup>(٤)</sup>.

المعيد: يختار المدرس من بين طلبته معيدين لدروسه وقد يكتفى بواحد حسب حاجته، ومهمته أن يلقي الدرس على الطلبة وأن يساعدهم فى فهمه،

(١) طلس - نظامية بغداد، عن ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨، وطبقات الشافعية ج ٢ ص ٣٥٠.

(٢) الطبقات ج ٤ ص ١٣.

(٣) أسعد طلس - نظامية بغداد عن ابن الساعى - تاريخ بغداد ص ٢١٩، وابن القوطى - الحوادث الجامعة ص ٢.

(٤) البكى: طبقات الشافعية ج ٤/٨٦.

لذلك فهو يحتاج إلى لباقة واطلاع، لذا كان من هؤلاء المعيدين مدرسون في مكان آخر.

وكما كان للمعلمين درجات فإن للمتعلمين - كما تشير النصوص المستعملة في هذا الباب - كذلك: ولعلّ أولى درجات الدارس أن يطلق عليه اسم تلميذ أو طالب ثم بعد أن يصل المرحلة العالية في المعرفة يقال له: مثقف ثم فقيه. فإذا أكمل دراسة منهجه وبقي ملازمًا لأستاذه ليكمل علومه يسمى بالصاحب وقد يعتمد عليه أستاذه فيعيّنه معيدًا لدروسه، وناسخًا لمؤلفاته تحت إشرافه.

### الكتاب المدرسي:

والذي يلوح لنا من خلال سير أساتذة النظامية وطرق تعيينهم أن التأليف كان من الاعتبارات التي تراعى عند اختيارهم، لذلك لم نجد في أسمائهم غير مؤلفين خاصة في عهد «النظام»، وكانت الدرجات العلمية التي تمنح لهم أو يعيّنون بها، أو يتقلون بموجبها إنما تعتمد على هذا الأساس في الغالب. وكان الكتاب المدرسي الذي يضم مجموعة محاضرات الأستاذ، سرعان ما ينتشر فلم يمله على طلبته ويسمعون عنه حتى يستنسخونه ويتبادلون النسخ المصححة أو المجازة من قبل مؤلفها، ولم تمر فترة قصيرة حتى يتدارسه المعينون بموضوعه فقد تحدث الغزالي عن - ابن سينا - وأثنى عليه وأشاد بتحقيقه، ودقة نقله<sup>(١)</sup>. مع علمنا بأنهما متعاصران تقريبًا.

وقد يطلق على مجموعة تقارير الأستاذ في الفقه اسم - التعليقة - فيحفظونها الطلبة ويتناقلونها، ومن هذه التعليقات ما يبلغ بضع مجلدات، وكلما كانت التعليقة أكثر أصالة كانت أكثر انتشارًا وتدارسًا من قبل المعينين.

وكان من عادات الأساتذة إذا ختموا كتابًا احتفلوا لذلك. وما يروى بهذا الشأن أن الإمام الجويني عندما أتمّ تصنيف كتابه - نهاية المطلب في دراسة

(١) الغزالي - التهافت ص ٩.

المذهب - وكان قد درّسه للخوارج من تلاميذه - عقد مجلساً حضره الأئمة الكبار، وختم الكتاب على رسم الإملاء والاستملاء، ودعا له الجماعة وتبجحوا به<sup>(١)</sup>.

### موضوعات الدراسة وطرق تدريسها:

بين المعبد والمدرسة سواء أكان مسجداً أو كنيسة، صلوات وثقى منذ القدم إذ نشأت في ظلاله، وما أن ترعرعت ونمت حتى انفصلت عنه انفصال الأرض عن الشمس، حيث بقيت تلازمه، ولم تستطع الانطلاق عن مدار تعاليمه وقواعده إلا بقدر معلوم، لذلك بقيت أساليب التعليم اتباعية وأكثر ما تعتمد عليه الاستماع والإملاء والحفظ.

وظل العلم يحاول استقلاله عن المعبد زمناً طويلاً ولم يكد يتخلص من فرض سلطانه عليه حتى فرضت السياسة سيطرتها. . . وبقي الدين والسياسة يتنازعان النفوذ في تسخير العلم لأغراضهما حتى الوقت الحاضر. . . وكان القرن الخامس - كما نعتقد - من العصور التي ضاق بها العلم ذرعاً من تزمت المتدينين واستبداد السياسة.

وكان «نظام الملك» - ممن يرى في العلم أفضل وسيلة لتنوير أذهان الناس وإفهامهم الحق والخير - كما يعتقدهما - وطرد الخرافات وانتزاعها من نفوسهم، وهو فوق ذلك دعامة للدين الصحيح وسند للدولة القائمة. ومادام «النظام» شافعياً أشعرياً واعتقاده بأن طريق الخلاص من المبادئ الخبيثة لا يكون إلا بنشرهما وتوحيد الأقطار على أساسهما فقد اشترط في أساتذة نظامياته المذهب الشافعي.

وكان منهج التعليم الذي يسير بمقتضاه الأساتذة شاملاً لمجموعة العلوم الإسلامية المعروفة كالقرآن والحديث، ثم أصول الفقه والفقه على المذهب الشافعي وعلم الكلام على رأى الأشعري، ثم مجموعة اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض. . . وكان تسلسل المنهج وتطبيقه تربوياً سليماً إلى

(١) التهافت: الغزالي ص ١١.

حد كبير فقد دلتنا التراتيب التعليمية التي وصلتنا على أن مناهج الدروس التي يسير بموجبها الطلبة تتدرج من السهل إلى الصعب. ومن البيط إلى المركب إذ تبدئ بالعلوم الثقلية التي تعتمد على اللسان ومقوماته ثم تنتقل بالطالب إلى العلوم العقلية التي تعتمد على التفكير. . ومن هنا كان النحو والصرف بداية المرحلة الدراسية الطويلة وكان الفقه وأصوله هما النهاية التي ترافق الطالب إلى اللحد. . وذلك لأن الفقه بمعناه الخاص فلسفة التشريع على اختلاف مذاهبه وهي مرحلة الاجتهاد في الحقوق والمعاملات التي تستغرق بقية العمر.

ولم تزل خطة التدريس باقية في المدارس الدينية الموجودة في أمهات المدن الإسلامية، وأن الزائر لإحداها في الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين في مصر والمغرب، والنجف، والكاظمية والموصل من مدن العراق، وفي إيران وباكستان وتركيا ليشاهد حلقات الدرس المنظمة التي تعقد صباح كل يوم إلى قرب صلاة الظهر حيث يتلقى فيها الطلبة دروسهم على يد أساتذتهم المتخصصين، ثم تستأنف في العصارى والأماسى قبيل صلاة المغرب وبعيده وحيث تنتظم حلقات الطلبة بشكل دائري حول الأستاذ وهو على منصته، وقد تمتلئ الدائرة بحيث لا يبقى فراغ في داخلها فيبلغ عدد حضورها أحياناً نحو ثلثمائة طالب قد يكون من بينهم الأساتذة، وربما تشترك معهم الطالبات كما حدث في حلقة درس الإمام الجويني في نظامية نيسابور<sup>(١)</sup>.

وتدلنا الأساليب الباقية لتلك الحلقات أن الطلبة كانوا أحراراً في اختيار أساتذة المادة التي يرغبون التخصص فيها وأن اختيارهم هذا كان موفقاً ومجدياً، وأن المناقشة والجدل وبخاصة في مسائل الخلاف من أهم الوسائل التعليمية آنذاك. وأن الطلبة كانوا أحراراً في مناقشتهم على ألا تتعدى حدود الآداب المألوفة حتى ألفت المعينون بالتربية وأصول التدريس كتباً فيها<sup>(٢)</sup>. وكانت

(١) ابن عساكر - التبيين ص ٢٨١ .

(٢) مثل: تعليم المعلم طريقة التعلّم - برهان الإسلام الزرنوجي المتوفى سنة ٦٠٠ هـ لابن عبد البر.

المحاضرات يتخللها الدعابات والنوادر بحيث اتخذ الأساتذة من الشيخ أبي إسحق الشيرازي مثلاً على ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد وصف لنا ابن جبير في رحلته درسين كان ألقاهما الإمام رضى الدين القزويني في نظامية بغداد في صفر من سنة ٥٨٠هـ، وهما وإن كانا مجلسين في الوعظ والتذكير إلا أنهما يصوران كيف يبدأ درس التفسير مثلاً ثم كيف تدور المناقشات وتعرض الأسئلة، وأن قسطاً منها يكتب على رقاع تقدم إليه يمسكها بيده ويحجب على كل واحد منها بعد ختام محاضراته بمثل ما تنتهي المحاضرات العامة اليوم، ثم يفرق الجمع بعد نزوله عن المنبر<sup>(٢)</sup>.

### التخصّص الضيق :

وما كنّا نشهد في تلك الموضوعات الدراسية هذا التخصّص الضيق الذى نعانى نقائضه كما ننعّم بمزايده اليوم فلم نجد النحوى يومذاك على تضلعه فى نحو سيبويه والكسائى والفراء مقتصرًا عليه، وإنما يتحدث ويناقش فى مسائل التشريع والكلام والطبيعة والرياضيات والتاريخ والآداب كأنه من المختصين أو المبرزين فيه، وإن الموسوعات التى وصلتنا فى مختلف الموضوعات لتشهد بذلك حيث يتلقى الطالب فى مستهل حياته الدراسية محفوظات من آى القرآن الكريم ثم قواعد النحو والبلاغة والتاريخ ومبادئ الحساب والهندسة والآداب، ثم يتدرج فيلمّ بهذه ويضيف إليها العلوم الفلسفية والطبيعة وما وراءها، فلا يبلغ مرحلة التخرج والإجازة حتى يكون قد أخذ من كل شىء أحسنه.

وكانت مسألة الاختصاص على حساب الموضوعات الأخرى من مسائل الخلاف فى هذا العصر، وكان ممن تحدث عنها «أبوبكر بن المعافرى» فى عواصمه فقال : ولا يقل أحد متى أحصل هذا - أى المشمول - فإنه ليس المطلوب منها الغاية، وإنما ينبغى لكل عاقل أن يتخصّص بجزء منها ولا يفرد نفسه ببعض العلوم فيكون إنساناً فى الذى يعلم، بهيماً فيما لا يعلم. . ولا يصح إلى من

(١) الذهبى - سير أعلام النبلاء ج ١١ ص ٥١٤ .

(٢) ابن جبير - الرحلة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

يقول له: فكن مقصراً في كل علم إذا فعلت هذا والأولى بك أن تقف نفسك على علم واحد فإنه قول جاهل بالعلم؛ لأن المشاركة ممكنة والإحاطة بعلم واحد غير ممكنة.. فلا يستطيع «سيبويه» ولا الفارسي إحاطته بالنحو على الرغم من تخصصهما فيه، وقد أفسد تخصصهما كثيراً من نحوهما<sup>(١)</sup>.. ولأن العلم والأدب يتربطان بصفاتها المشتركة وأغراضهما في الحياة ولأن فروع العلم وفنون الأدب تتصل بوشائج من الأشباه كاتصال العقل بالقلب والتفكير بالعاطفة، والعالم في نظرهم ما تثقف عقله وتهذب قلبه.

وقد منح الأستاذ في النظامية استقلالاً وحرية ضمن حدود معينة كما تفرضها عليه النظم الجامعية اليوم، فهو لا يدرس عادة إلا المادة التي تخصص واشتهر بها وله أن يختار الطريقة التي يفضلها لإلقاء محاضراته، وكان الطلاب يفاضلون بين الأساتذة بموجبها، حتى حكى عن أبي الفتح المقدسي أنه قال \*صحبت إمام الهرميين الجويني ثم قدمت العراق فصحبت الشيرازي فكانت طريقته عندي أفضل من طريقة أبي المعالي<sup>(٢)</sup>.

كما لم يخضع لرقابة المحتسب مثلما يخضع المدرس في المدارس التي تمهد للدراسة بها، إذ كان التعليم في موضوعات بسيطة معينة وطرائق تدريسه للصغار تحت إشرافه لأن منها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيراً فيضع من قصر وأساء في التصدي لما يفسد به النفوس<sup>(٣)</sup>. على أننا لم نجد مثل هذا الحق في التفتيش على النظاميات وأساتذتها.

### القبول والتخرج:

وكان التعليم من قبل مقصوراً على أبناء الأثرياء والكبراء لأنه يتطلب سعة في المال وشهرة في الجاه ففتح «النظام» أبواب نظامياته للناهبين إذا أنس فيهم

(١) المعافري أبو بكر: العواصم من القواصم ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) طبقات ج ٤ ص ٢٨ .

(٣) الماوردي - الأحكام السلطانية ص ٢٢١ .

حدة من ذكاء والراغبين فى العلم إذا لمس منهم إقبالاً عليه، وضمن لهم عيشاً رغداً لا يقل عن مستوى طلبة الجامعات فى العصر الحديث وأتاح لهم حياة كريمة ينظرها الخواص والعوام بعين التجلّة والاحترام.

وكانت النظاميات تستقبل كل طارق، دون التقيّد بعدد الطلاب مثل ما اتخذ مبدأ التحديد فى المتصرية، أو توافر شروط الشافعية فى الدارسين كما التزم فى المدرسين، ولئن صحّ هذا كان معناه أن التعليم العالى كان حرّاً لجميع المواطنين ممن يحملون مؤهلات التعلّم ويرغبون فى مواصلة الدراسة، وكان على المدرسة أن تهيبّ للطالب عند قبوله ما يلزمه من سكن وما يقتضيه من حاجات كما توفر له أربعة أرتال من الخبز فى اليوم<sup>(١)</sup>.

وليس هناك سنّ محددة للقبول فى هذه المدارس فقد يدخلها الطالب وهو ابن الثلاثين أو أكثر إلاّ أنه لا يقل عن العشرين فى العادة حيث قضاها فى التعلّم بين المسجد والكتاتيب، فإذا انتمى لإحدى النظاميات وانتظم فى سلك طلبتها وتلقى دروسها فليس هناك سنّ معينة تمنع من سماعها فقد يحضرها وهو فى سنّ الثمانين<sup>(٢)</sup>. وليس هناك وقت محدد للمدّة التى يستغرقها الدرس أو عدد الدروس اليومية فقد يستمر ساعة أو اثنتين وقد يكون هناك درسان فى اليوم أحدهما قبل الظهر والثانى بالعشى.

وثالث الأشياء الحرّة فى هذه المدارس هى مدّة الدراسة إلاّ أن نصّاً ذكره لنا ابن الجوزى فى ثنايا ترجمته - لأبى على الفارقى - أحد تلاميذ - أبى إسحق الشيرازى يمكننا الاستنتاج منه بأن أقل زمن يصل فيه الطالب مرحلة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن الجلوس بين يدى أستاذه هى أربع سنوات<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الجوزى: المتظم ٢٤٦/٨.

(٢) انظر: طبقات السبكي - ترجمة عبد الله بن على بن عوف ج ٣ ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق وترجمة الفارقى ج ٤ ص ٢٠٩، وابن الجوزى - المتظم - حوادث سنة ٥٢٨هـ.

## الإجازة: (شهادة التخرّج)

هي الوثيقة المدرسية وكان الاستماع للمحاضرات من شرائطها، لأنها لا تفي بالقصد من الدراسة والغرض من التعلم إذا لم يصحبها حضور، وهذا ما علّل به - الماوردى - عدم صحة حمل الإجازة والرواية بها فقال: ولو جازت لبطلت الرحلة<sup>(١)</sup>. وقد يمنح الطالب عدة شهادات من شيوخ متعددين وطريقة الحصول عليها في العادة يكون بناء على طلب يتقدم به لمدرسه بعد أن ينهى دراسته. وقد أصبحت هذه ضرورة بعد تأسيس النظاميات وانتشار المدارس.

فإذا نال إجازته فقد أصبح مهياً لأن يشغل أحد مناصب القضاء، أو الافتاء، أو التدريس، أو المناظرة، وقد يحظى بأكثر من واحدة منها فيكون قاضياً ومفتياً ومدرساً في آن واحد، أو أن يكون حرّاً فيعمل ليكون محدثاً أو متكلماً، أو واعظاً أو خطيباً في أحد المساجد<sup>(٢)</sup>.

## المدارس الأهلية قبيل النظاميات :

لقد انتهى القرن الرابع الهجري حيث كان الناس يتلقون العلم في المسجد والبيت والسفر والحضر<sup>(٣)</sup>، إلى حيث تلك المعاهد النادرة، ولم يطلع القرن الخامس حتى انتشرت المدارس الأهلية في عواصم الأقاليم الشرقية ففي «غزنة» عاصمة آل سبكتكين في سجستان بنى السلطان «محمود» مدرسة إلى جانب جامعها يصفها لنا - العتبي - بأنها فيحاء تشتمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناظرة السقوف على تصانيف الأئمة الماضين. . يتناوبها فقهاء دار الملك وعلمائها للتدريس والنظر في علوم الدين. على كفاية ذوي الحاجة منهم بما يهمهم جارية وافرة ومعيشة حاضرة<sup>(٤)</sup>.

وفي نيسابور عاصمة خراسان بنى أبو إسحاق الإسفرايني مدرسة قال عنها السبكي: إنها لم يبن بنيسابور قبلها مثلها ودرس فيها إلى أن مات سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م<sup>(٥)</sup>. . ومدرسة بناها الأمير - نصر بن سبكتكين - حينما كان

(١) طبقات الشافعية لابن الصلاح - اختصار النوى ورقة ٧٥.

(٢) د: عبد الله الفياض: الإجازات العلمية.

(٣) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ١٣٥.

(٤) العتبي - كتاب اليمنى ج ٢ ص ٢٩٠ - ٢٠٠.

(٥) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ١٣٥.

والياً على نيسابور وسماها السعدية، وكانت من بينها المدرسة البيهقية قبل أن يولد «النظام»<sup>(١)</sup>، وفي بيهق كما ذكر - ابن فندن - وهو من أبنائها الذين أرخوا لها بعد «النظام» بأقل من قرن: كان قد بنى «أبو القاسم على بن محمد الحين بن عمرو من أثرياء قصبه سبزوار مدرسة للمفسر «على بن عبد الله بن أحمد» النيسابورى فى محلّة أسفريس فى رمضان سنة ٤١٨هـ، وآثارها - إلى عهد المؤلف - باقية<sup>(٢)</sup>، ثم قال فى ترجمة هذا الثرى أنه بنى أربع مدارس للطوائف الأربعة قبل سنة ٤١٤هـ<sup>(٣)</sup>، وفى «مرو» أنشأ أبو حاتم البتى المتوفى سنة ٤٢٠هـ مدرسة ألحق بها مكتبةً ومكناً للطلبة الغرباء بالمجان ورتب لهم معاشاً<sup>(٤)</sup> . .

وفى بغداد كان للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ طلاب ومدرسة يجرى عليها وعليهم الأرزاق، وقد يبلغ راتب طالبا اثني عشر ديناراً أو ثمانية دنانير كل شهر، وأن بعض الفقراء من غير المسلمين كان يدرّس عليه علم الفلك بقصد التوفر على هذا الراتب، كما أوقف قرية على كافة الفقراء<sup>(٥)</sup> .

وجاء «النظام» فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر والاعتماد عليه فى دعوتهم ودراسة مذهبهم فكانت هذه مصادر إحياء وتحفّز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس وليست مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين فى حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح . . .

وعلى هذا يبدو لنا أنه ليس - النظام - أول من بنى المدارس فى الإسلام وليست نظامية بغداد أولها على وجه الإطلاق، فإن النصوص التى تؤرّخ لنظامية أصبهان يمكننا أن نستنتج منها بأنها أقدم المدارس النظامية، وأن النقول التى عرضناها تدل على وجود نظائر لها سبقتها. أمّا أوجه الأولوية فى

(١) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ١٣٧ . .

(٢) ابن فندن - تاريخ بيهق ص ١٧٥ .

(٣) ابن فندن - تاريخ بيهق ص ١٩٤ .

(٤) أسعد طلس - نظامية بغداد ص ١٣ .

(٥) عبد الرزاق محى الدين - أدب المرتضى ص ٦٨ عن روضات الجنات ج ٢ ص ٣٨٣ .

نظاميات الوزير فليس لأنها انفصلت عن الجامع والمسجد فى طراز بنائها ومنهاج دراستها وفرض الجرايات والمعالم لأساتذتها وتلامذتها، وإنما لأنها - كما نرى - جماع ذلك فضلاً عن أن الحكومة هى المشرفة عليها، والتى تقوم بتوظيف معظم الطلبة الممتازين من متخرجيها . وكانت نظامية بغداد واسطة العقد فى تلك السلسلة من المدارس النظامية، وأكثرها ذيوغاً وأبعدها صيغاً وشيوغاً، وإن لم تكن أقدمها إنشاءً وعمارة؛ لأنها فى عاصمة الخلافة العباسية، وتضم بين جدرانها أفضل العلماء وخيرة الطلاب، لذلك يحسن بنا عرض هذه المجموعة حسب أهميتها وشهرتها:

### ١- نظامية بغداد:

إن معهداً يعتبر البذرة الأولى للدراسات العليا المنظمة فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، والذى امتد عمره خمسة قرون تقريباً وظهرت آثاره فى طراز البناء ومناهج التدريس واضحة على المدارس التى شيّدت بعد إنشائه، والذى أثار أساتذته ومتخرجوه ضجة علمية ودينية اجتاز صداها حدود الخلافة ومملكة آل سلجوق إلى أقصى بلاد المغرب لجدير بالدراسة التفصيلية من جميع نواحيه، لذلك ظفر بعناية الباحثين بشكل لم نعهده فى تاريخ معهد آخر<sup>(١)</sup> . . والذى يعيننا - نحن - ما يكشف لنا عن الغرض من تأسيسه، والقصد من مناهج الدرس فيه، وهذا ما أشرنا إليه من قبل فلم يبق علينا إلا أن نتعرض لنواحيه الأخرى كما يقتضيها منهج البحث .

لقد قيل فى أسباب بنائها - وصاحب هذه المقولة من معاصرى «النظام» ومات بعد اغتياله، بخمسة وثلاثين عاماً أى سنة ٥٢٠هـ -: إن الشيخ «أبا سعيد» الصوفى زار «النظام» يوماً وقال له: «أريد أن أوّسّ فى مدينة السلام مدرسة تخلّد ذكرك إلى يوم القيامة، فوافق «النظام» على ذلك وأصدر أمراً إلى العمال بصرف المبالغ اللازمة» .

(١) انظر: أسعد طلس - نظامية بغداد (رسالة نال بها المؤلف إجازة الدكتوراه من جامعة باريس).

ويحكى صاحب هذه المقالة: «أن أبا سعيد (القاشى) بعد أن وكل إليه «النظام» بناء المدرسة ابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخطّ المدرسة النظامية وبنائها أحسن بنیان وكتب عليها اسم «نظام الملك»، وبنى حولها أسواقاً تكون محبوسة عليها وابتاع ضياعاً وخانات وحمامات وأوقفت عليها، فكملت بذلك لـ«نظام الملك» الرياسة والسؤدد. . وكان ذلك فى سنّى عشر الخمين وأربعمائة من الهجرة. . ثم رفع حساب النفقات فبلغ ستين ألف دينار»<sup>(١)</sup>. ويتم صاحب هذه الحكاية روايته: «بأن (النظام) استكثر المبلغ وطلب منه كشفًا مفصلاً بذلك إذ طرق سمعه أن جميع المصروف على البنیان لا يزيد على تسعة عشر ألفاً وأن بقية الأموال احتجها الوكيل لنفسه. . ثم أذن بصرفه حينما سمع منه أنه سيقدّم له المبلغ ويسجّل المدرسة باسم الخليفة القائم»<sup>(٢)</sup>. . وبنى «أبو سعيد» بتلك الأموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور وأوقف جميع ذلك عليهم.

ولسنا ندرى كيف يسوغ لأبى سعيد الصوفى أن يحتجز من أموال الدولة العامة أو الخاصة بالوزير وهو الزاهد المتصوّف، ولسنا ندرى كيف يتبيغ ذلك الطرطوشى فيطرى هذه القصة ويثنى على صاحبها أيما ثناء حتى ليقول: «وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، فإن فيها عزّ الدنيا وشرف الآخرة»<sup>(٣)</sup>. . وليس لكل ذلك من مبرر - كما أظنّ - إلاّ أنها كانت من أجل الخير العام، وفى سبيل طائفة الصوفية بالذات، وليس هو بالمبرر المشروع.

ومهما قيل من أسباب فى إنشاء «النظام» لمدارسه ونظامية بغداد خاصة فقد غضّ «النظام» طرفه عن هذه الاختلاسة، وعفا عن مرتكبها دون تدقيق ولا محاسبة، لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى شىء أعظم وأجلّ من المال إذ

(١) أبو بكر الطرطوشى - سراج الملوك ص ٢٣٩.

(٢) ابن أبى الدم - تاريخ المظفرى ورقة ٤٢٥ - حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) سراج الملوك ص ٢٤٠.

كانت المدرسة من أهدافه العظام وأمانيه الجسام لتضم بين جدرانها جمع العلماء المثقف وتجمع شملهم المتفرق وتجعل منهم صفًا واحدًا أمام المبادئ الخبيثة التي تهدد كيان الدولة، فلم ير نفرًا من رجال العلم، أو يسمع قولة - أبى سعيد - حتى انتهزها فرصة ليهيئ لهم الجو الذي يمكنهم من تنفيذ مزاعمهم الهدامة.

وقبل أن نتقل إلى ناحية أخرى من نواحيها يحسن بنا أن نشير إلى ما استفدناه من هذا النص عدا ما تقدم ذكره:

أ - أنها لم تشتهر بعد باسم المدارس النظامية حتى عام تأليف ذلك الكتاب.  
ب - أنها تقع على شاطئ دجلة مباشرة وليست بعيدة عنه قرب الباب المشهور بباب الأرج.

ج - أن تكاليف بنائها بلغت ستين ألفًا<sup>(١)</sup> وليست مائتي ألف دينار - كما نقل غيره عن غزالي<sup>(٢)</sup> - خلأً لأغلبية المؤرخين.

أما تاريخ تأسيسها، فالمعروف لدى رجال السير والتاريخ أنه بدئ في بنائها عام ٤٥٧هـ وانتهى في عام ٤٥٩هـ<sup>(٣)</sup>، وبذلك يكون تأسيسها في سني عشر الستين وأربعمائة من الهجرة، وليس كما يزعم «الطرطوشى» في سني عشر الخمسين وأربعمائة، ولعل خطأ النسآخ هو الذى أوقع فيه الناشر للكتاب.

### تسميتها:

ولسنا نعرف بالضبط متى أطلق عليها ومن أول من سمّاها «بالمدرسة النظامية» وإن كان هناك من النصوص ما يصرّح بأن اسم الخواجة - نظام الملك - نقش على العمارة بعد إتمامها<sup>(٤)</sup>، غير أن «أبا بكر المعافرى» الذى رحل من

(١) ابن أبى الدم - تاريخ المظفرى، ورقة ٤٢٥ - مجلة المجمع العلمى والعراقى ج ١/١٤٥ - سنة ١٩٥٤م - الترجمة.

(٢) التنبى وسعدى ص ٨٣ عن غزالي نامه لهمائى ص ١٣٠.

(٣) المنتظم - حوادث سنة ٤٥٧هـ ج ٨ ص ٢٣٨، وحوادث سنة ٤٥٩هـ ج ٨ ص ٢٤٦، والكامل ج ١٠ ص ٢٠ نفس العام، وغيرهما.

(٤) الطرطوشى - سراج الملوك ص ٢٣٩.

المغرب إلى بغداد ليلتحق بنظاميتها ووصل إليها بعد مقتل «النظام» بخمة أعوام، وقابل الإمام الغزالي فيها سنة ٤٩٠هـ، ثم كتب رحلته هذه ومشاهداته، أطلق عليها - اسم مدرسة السلام - على الرغم من ثنائه العاطر على مؤسسها، وإشادته بالدور العلمي الذي قامت به فقال: «ولقد فاوضت فيها - أبا حامد الغزالي حين لقائى له بمدرسة السلام فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ وقد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ٤٨٦هـ إلى ذلك الوقت نحو خمة أعوام»<sup>(١)</sup>.

وليس ببعيد أن إطلاق اسم النظامية على هذه المجموعة من المدارس ومنها نظامية بغداد إنما كان بعد القرن الخامس، وحينما بدأ المؤرخون فى الكتابة عنها والتمييز بينها وبين غيرها من المدارس التى انتشرت حينذاك فى معظم الولايات.

### موقعها:

ولئن صحّ ما قيل من حكاية «أبى سعيد الصوفى» كما نقلها الطرطوشى فليس «للنظام» حيثذ رأى فى اختيار موقعها ولا فى طراز بنائها أو تحديد مساحتها، كما لم نجد بين النصوص ما يشير إلى مساهمته فى ذلك عدا ما يتصل بمواد البناء ومناقشته له فيه. فقد حكى لنا هندوشاه فى «تجاربه» بعد سرده لتلك الحكاية السالفة أنه قال له: كنت أريد أن تكون النظامية مُحكمة البناء مثل جامع المنصور وبيمارستان عضد الدولة فقد سمعت أنهما جعلتا لكل آجرة زنبيلاً من الجير، وقد بلغنى أنك جعلت واجهة البناء من الآجر المنقوش وأخاف أن ينقضّ سريعاً»<sup>(٢)</sup>.

(١) العواصم من القواصم جـ ١ ص ٢٠، والذى عليه أغلب المراجع العربية أنه ترك المدرسة سنة ٤٨٨هـ، ومن أشار إلى هذا اللقاء فقد أرجعه إلى الشام وأنه قصد مناظرته فقال له: هذا شئ تركناه لصبية فى العراق يعنى المغالبة بالمعلم والمفاخرة به. (مرآة الجنان لليافعى جـ ٣ ص ٢٢٧).

(٢) تجارب السلف هندوشاه ص ٥.

لقد اختار الشيخ أبو سعيد لعمارتها مكاناً في الجانب الشرقي مازال حتى اليوم يعدّ من أرقى محلات بغداد وأحسنها فقد حدّد لها قطعة من الأرض تطل على دجلة. وفي ذى الحجة سنة ٤٥٧هـ (أكتوبر سنة ١٠٦٥م) شرع فى بنائها واستمر العمل متواصلاً ستين إلى أن انتهى منها فى يوم السبت ١٠ من شهر ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (٤ سبتمبر سنة ١٠٦٧م)<sup>(١)</sup>.

ثمّ عفت السنون المتعاقبة على أطلالها فلم تبق لنا منها ما يدلنا على موقعها، ولم يردنا من النصوص الثابتة الواضحة ما يحدد لنا موضعها. وبهذا أصبحت مثار خلاف للباحثين، فقد ظنّها - الألوسى - فى محلة اليهود التى تسمى «باب الأغا»<sup>(٢)</sup> مستدلاً على مكانها بما بقى من مئذنتها. وهى منارة تقع فى زقاق سمى بها، أو بدرج محمود أبو الحسن، وقد شاركه الرأى - العزأوى - من مؤرّخى العراق المحدثين<sup>(٣)</sup>.

ولم يصل - أسعد طلس - فى رسالته عن نظامية بغداد إلى نتيجة حاسمة سوى قوله: «وبالاختصار يمكننا التأكيد بأنه لم يبق اليوم أى أثر للنظامية وأنها كانت فى سوق الثلاثاء»<sup>(٤)</sup>، إلاّ أن المرحوم «مصطفى جواد» - البحاثة الخططى المشهور - يرى أن هذه المنارة ربما تكون بقايا مئذنة المدرسة الإمامية نسبة إلى الخواججا إمام الدين الأفنجارى القزوينى وهى فى درب - فراشا - شرقى بغداد<sup>(٥)</sup>، وأن النظامية تقع فى موضع سوق الخفافين اليوم قبال رباط شيخ الشيوخ - أبى سعد النيسابورى - الذى حلّ بمكانه الخان المعروف بخان «الباججى» بجوار جامع الخفافين فى سوق الكمرى العتيق على دجلة<sup>(٦)</sup>.

(١) المنتظم، ومرآة الزمان، وابن الأثير - حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٢) وتسمى اليوم المنارة المقطومة أى المقطوعة، وبينها وبين جامع مرجان نحو ثمانين خطوة (مساجد بغداد الاثرية ص ١٠٥. الهامش للأثرى).

(٣) العراق بين احتلالين ج ٢ ص ٨٦.

(٤) أسعد طلس - نظامية بغداد.

(٥) كما فى نكت الهميان ص ٢٠٣ والحوادث الجامعة ص ٥٠٤.

(٦) ابن الديبى - المختصر المحتاج ج ١ ص ٥٢ الهامش.

وهو رأى صرّح لى به أثناء تجوالنا مرة لاستكشاف موقع النظامية فاجتازنا عدة أسواق منها سوق الميدان ثم بسوق العطر والمخلّطين أى البزازين فقال: «إنها الفروع التى تتصل بشمال سوق الثلاثاء العتيقة وجنوبه، ولما أسست النظامية بنى لها سوق هو سوق الكمرك الآن، ثم بنيت المتنصرية فاتصل سوقها بسوق النظامية، فسوق الثلاثاء اليوم وهو سوق الحيدرخانة من باب الأغا».

وهو رأى وجيه لأن الثابت من أقوال الرحالة ابن جبيرو «ابن بطوطه» وغيره من المؤرخين أنها تقع على شاطئ دجلة فى وسط سوق الثلاثاء<sup>(١)</sup>. ولأن المنارة السالفة الذكر تبعد عن شاطئ النهر بما لا يقل عن خمسمائة متر، فلا يصحّ أن تكون من آثار النظامية الدالة على موقعها.

وهو رأى على وجاهته لايمكننا التثبت منه مادامت المدرسة فيحة حيث ابتاع لبنائها - أبو سعد - بقية الدور الشاطئية بمشرفة الزوايا والفرضة وباب الشعير ودرّب الزعفرانى<sup>(٢)</sup>. ومادامت تحتوى على محال للدروس والمذاكرة ومصلى يسع الألوّف وأماكن الجلوس للأساتذة، ومخازن للأدوات، وحجر بيوت - للسكن كما سنرى وصفها فيما يأتى:

### وصفها:

لقد كانت نظامية بغداد نموذجاً راقياً بنيت على نمطه المدارس التى أنشئت فى عهدها أو قبيل خرابها. وقد قدر لبعض هذه المدارس التى شيّدت على غرارها أن تبقى بمنزلة العلام التى ترشدنا إلى ما نريد فى هندسة بنائها كما كانت إمارة فى تحديد مكانها، ومن أهم تلك المدارس وأشهرها - المتنصرية - التى أفرغت على قلبها وحيكت على منوالها وصيغت على مثالها ولكن فاتها الشنب على رأى المثل<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن بطوطه ص ١٣١، والسبكي - الطبقات ج ٣ ص ٨٨ - ٩٨.

(٢) المتنظم ج ٨ ص ٢٣٨، والسيوطى - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٥٧هـ.

(٣) الألوسى - مساجد بغداد وآثارها ص ١٠٢.

بهذه العبارة الموجزة ذات الأسجاع الثلاث يبدأ الألوسى وصفه لنظامية بغداد، ثم يستمر فى الوصف فيقول: كانت مستطيلة البناء متناسقة الزوايا والأرجاء فيها محل واسع للدروس وآخر مثله معداً للمذاكرة ولترويح النفوس، ومصلاًها يسع من المصلين الألوف وفيها مواضع لرؤساء العلم والمدرسين وأقنية للذخائر وأدوات الطبّاحين.

وكانت تشتمل على طبقتين من البناء وفيها من الحجر والبيوت عدد كثير، مرفوعة الجدران مشيدة الأركان، عقد فى جوانبها طاقات مستديرة الشكل تنتهى إلى ذلك البنيان المشيد، وقد فرشت ساحتها بالمرمر وسورها مؤزر بمثله<sup>(١)</sup>.

لقد استقى - الألوسى - وصفه من المتنصرية<sup>(٢)</sup>، والمدرسة والجامع اللذين أمر ببنائهما الأمير - مرجان بن عبد الله - سنة ٧٥٨هـ بنفس تصميم النظامية، حيث لا يوجد لدينا وثيقة أخرى تصفها لنا غير ما جاء بكتابه، ومن محاسن الأقدار أن تبقى المتنصرية وتبقى مدرسة مرجان وأن ترى الوصف الذى جاء به الألوسى منطبقاً إلى حد ما معهما.

### افتتاحها وأشهر أساتذتها:

لقد كان صباح يوم السبت الواقع فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) من غرر الأيام التى شهدتها بغداد لتكريم العلم فى شخصيات العلماء بمناسبة افتتاح نظامية بغداد، فقد أقيم حفل رائع حضره كبار رجال الدولة والأشراف والوجهاء، وسكان المدينة حتى امتلأ فناء المدرسة والمحلات المجاورة<sup>(٣)</sup>، وأخذ الجمع يزداد كلما ارتفع النهار إلى أن حان الموعد ولم يحضر

(١) المصدر السابق ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) المتنصرية - نسبة إلى مؤسسها الخليفة المتصر بالله بن الناصر، وكان يدرّس بها المذاهب الأربعة ولكل مذهب ديوان، وفيه موضع التدريس وجلس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط يقصده المدرس لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره معبدان (ابن بطوطة ج ١ ص ١٤١).

(٣) ابن الأثير - الكامل ج ٨.

الشيخ - أبو إسحق - الشيرازي الذي بنيت المدرسة برسمه<sup>(١)</sup>، وتساءل الناس عن سبب تأخره. ف قيل إن صبيًا قابله في الطريق وهو آتٍ لالقاء محاضرتة الأولى وقال له: «كيف تدرّس في مكان مغصوب<sup>(٢)</sup>؟».. فعاد من حيث أتى، ولم يجد العميد - أبو سعد الفاشي بدءًا من تكليف «أبي نصر بن الصباغ» صاحب «الشامل والكمال» لكيلا ينفذ الاجتماع من غير درس يسمعونه، وضمن له الشيخ أبو منصور بن يوسف المشرف على البناء ألا يعدل عنه ولا يمكّن «أبا إسحق» من الإفساد عليه، فوافق عليه وألقى محاضرتة وجرت مناظرته<sup>(٣)</sup>، ولكن المصادر تجمع على أن الخبر لم يصل إلى مسامع «النظام» حتى أقام القيامة على الشيخ، وطلب منه أن يلحّ على - الشيرازي - بالتدريس فيها، وأذعن الشيخ لضغط الوزير والخليفة والعميد جميعًا وخشى - أبو إسحق الشيرازي - فتور تلامذته إذا بقي على تمنعه.

وبعد عشرين يومًا من تعيين سلفه ذهب إلى المدرسة وجلس فيها يوم السبت غرة ذى الحجة من العام نفسه، غير أنه كان إذا حلّ موعد الصلاة أداها في مكان آخر خارج المدرسة. . . ولعل في شعور «النظام» بحرج الموقف إذا انتشرت دعوى الاغتصاب. . . إلخ ما دفع به للإصرار عليه بأن يقبل التدريس فيها فضلًا عن منزلته العلمية، واحترامه له.

وقضى أبو إسحق سبعة عشر عامًا بالنظامية، وصنّف لتلامذته «التنبيه» و«المهذب» في الفقه و«النكت» في مسائل الخلاف، واللمع وشرحه، و«التبصرة» في أصول الفقه، و«الملخص»، و«المعونة» في الجدل، وطبقات الفقهاء وغيرها<sup>(٤)</sup> وتخرّج على يديه عشرات بل مئات الطلاب حتى روى أنه قال: ما دخلت قرية أو بلدة في خراسان إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها

(١) ابن خلكان- الوفيات ج ٢ / ٣٨٦ - القاهرة سنة ١٩٤٨م.

(٢) ابن الجوزي - المنتظم ج ٤٨ - حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٣) سبط بن الجوزي - حوادث سنة ٤٥٩هـ.

(٤) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ٨٨-٩٨، وابن خلكان ج ١ ص ٩.

تلميذى أو صاحبي<sup>(١)</sup> . . وكان من أشهر هؤلاء: أبو على الفارقي، المتوفى سنة ٤٢٨هـ<sup>(٢)</sup>، وأبو القاسم العكبرى المتوفى سنة ٥١٦هـ صاحب الانتصار فى مشكل القرآن<sup>(٣)</sup>، وأبو العباس الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٢هـ صاحب الشافى والتحرير وكتاب الأدباء<sup>(٤)</sup>، وأبو الحسن بن أبى الصقر الواسطى الأديب<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٤٩٢هـ، وعبد الله بن إبراهيم الخبرى المتوفى سنة ٤٧٦هـ صاحب شرح الحماسة وعدة دواوين كالبحتري والمتنبى وغيرهم<sup>(٦)</sup>، وأبو الحسن على ابن سعيد العبدري المتوفى سنة ٤٩٣هـ صاحب مختصر الكتابة فى خلافات العلماء<sup>(٧)</sup>، وأبو بكر أحمد بن على الحلوانى المتوفى سنة ٥٠٧هـ، ومن تصانيفه - لطائف المعارف<sup>(٨)</sup> - وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٤٩٣هـ صاحب التصانيف المعروفة، والحريرى البصرى صاحب المقامات المشهورة<sup>(٩)</sup>، وأبو العز محمد بن على بن بندار المعروف بالقلانسى<sup>(١٠)</sup> المتوفى سنة ٥٢١هـ وغيرهم كثيرون . . منهم: الشاشى فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد - درس فى النظامية معيداً للشيرازى ثم أستاذا منذ عام ٥٠٢هـ حتى توفى سنة ٥٠٧هـ.

ومما يلفت النظر عند مراجعة تراجم هؤلاء المتخرجين أنهم جميعاً إلا ما قلّ منهم قد تولّوا مناصب القضاء فى الدولة فى مدن الأقاليم المختلفة، مما يدلّنا على أن النظامية «بعد قليل من الوقت» أصبحت تمدّ الدولة بالموظفين الفنيين، وأن الدولة أصبحت تعتمد فى وظائفها على ذوى الإجازات المدرسية العالية لاسيما المتخرجين منها . . وكذلك كانت مما تعنى به هذه المدرسة اختيار أفضل العلماء لتوجيه الطلاب وثقيفهم، وكان «النظام» على رأس هذه الدولة هو الذى يعرف كيف ينبغى اختيارهم وعلى يديه أو من ينيبه عنه يتم تعيينهم . .

(١) المرجع السابق.

(٢) البكى ج ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٣) البكى ج ٤ ص ٩٦، ٢٠٩، ٢٣٦.

(٤) طبقات البكى ج ٤ ص ٢٨، ٦٧، ٢٩٨.

ومن أجل ذلك فإنه لم يتوف الشيخ - أبو إسحق الشيرازي - سنة ٤٧٦هـ حتى أغلقت المدرسة وجلس للعزاء به ثلاثة أيام وعين «مؤيد الملك بن النظام» بعدها مباشرة- وكان يومذاك ببغداد الشيخ أبا سعد بن أبي سعيد المتولى النيسابوري . ولما سمع «النظام» بذلك لم يجد في ذلك العزاء ما يليق ومنزلة الشيخ الراحل فقال: «لو أغلقت المدرسة سنة حداداً عليه»، كما لم يرض بهذا التعيين وطلب - أبا نصر بن الصباغ - مدرس النظامية الأسبق مكانه<sup>(١)</sup>، لأنه أجدر بها وأكثر منه . . . وقد كان هذا من أنداد الشيرازي وإليه كانت رحلة الطلاب في المتفق من المسائل والمختلف، وله من المؤلفات: الشامل، والكامل، وعدة العالم، والطريق السالم وكفاية السائل وغيرها<sup>(٢)</sup>. وقبل أن يكمل عامًا في التدريس صرف سنة ٤٧٧هـ وهو العام الذي توفي فيه وأعيد تعيين سلفه - ابن المتولى - وله كتاب «التتمة» على إبانة شيخه - الفوراني - و «مختصر الفرائض» وكتاب في الخلاف وآخر في أصول الدين واستمر في التدريس إلى حين وفاته في ١٨ شوال سنة ٤٧٨هـ<sup>(٣)</sup>.

وبقى هذا الكرسي شاغراً بضعة شهور إلى أن: «قدم بغداد في تجمل عظيم لم ير مثله لفتيه»<sup>(٤)</sup> - أبو القاسم علي بن أبي يعلى المظفر محمد العلوي الحيني الدبوسى - في جمادى الأولى من سنة ٤٧٩هـ، وبدأ التدريس في مستهل جمادى الآخرة . . وأغلب الظن أن سبب تعيينه كان بعد نجاحه في المناظرة التي عقدت بينه وبين أبي المعالى «الجويني» أمام الوزير - النظام - في أصبهان وتفوقه فيها على منافسه وبقي في منصبه ثلاث سنين إلى أن مات سنة ٤٨٢هـ<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) ابن خلكان ج ١ ص ٩. انظر ترجمته أيضاً في مرآة الجنان لليافعى ج ٣، والبداية والنهاية ج ١٢ ص ١٢٦ وفي نكت الهميان ص ١٢٣ .  
(٢) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ٢٢٣ .  
(٣) نفس المرجع .  
(٤) ابن الأثير - الكامل ج ١٠ ص ٦٥ - حوادث سنة ٤٧٩هـ .  
(٥) ابن الجوزى - المتظم ج ٩ ص ٢٧ - حوادث سنة ٤٨٢هـ - السبكي ج ٤ ص ٦، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٩ .

وفى المحرم من سنة ٤٨٣هـ ورد بغداد «أبو عبد الله الحسين بن علي» الطبري حاملاً منشور الوزير بتوليته التدريس فى النظامية. وكان قد أَلَّف كتاب «العدة» فى شرح «إبانة» الفورانى. . . وفى ربيع الآخر من هذه السنة وصل أيضاً - أبو محمد عبد الوهاب القاضى الشيرازى، ومعه منشور بالتدريس فتقرر أن يدرّسا بالمناوبة يوماً ويوماً. وهى أول ظاهرة فى تعدّد الأساتذة لمادة واحدة فى نفس المدرسة، وهى ظاهرة لا نستطيع لها تفسيراً بغير الاضطراب فى التعيين، وعدم الاعتماد على المعينين، لذلك لم يمر عليهما عام واحد حتى عزلا وعيّن الغزالي محلّهما سنة ٤٨٤هـ على إثر تفوقه فى مناظرة جرت فى مجلس «النظام» مع زين الدين شرف الأئمة.

### الغزالي وأشهر تلامذته :

وقضى الغزالي خمس سنوات تقريباً إلى أن اعتزل المدرسة بين سنة ٤٨٨-٤٨٩هـ إلى الاعتكاف والرياضة النفسية فأعيد الطبري إلى منصبه فى التدريس حتى توفى سنة ٤٩٥هـ كما توفى زميله فى المناوبة سنة ٥٠٠هـ بعد أن أَلَّف كتاب - الأحاد - وتفسيراً ضمّنه ألف بيت من الشواهد<sup>(١)</sup>.

وليس من شك بأن الغزالي كان من أشهر الأساتذة الذين تولوا التدريس فى نظامية بغداد على عهد «النظام» وليس من شك بأنه سبقهم فى كثرة مؤلفاته كما فاقهم فى تصوّفه واعتكافه فقد «برع فى المذهب والخلاف والجدل والأصلين - أصول الفقه وعلم الكلام - وصنّف فى كل فن منها»<sup>(٢)</sup> حتى بلغ مجموعها ٥٦ كتاباً من أهمها: إحياء علوم الدين الذى اعتمد فيه - كما يرى السبكي - على كتابي - قوت القلوب - لأبى طالب المكي، والرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيري<sup>(٣)</sup>. ومنها أيضاً - الوجيز<sup>(٤)</sup> والوسيط<sup>(٥)</sup> والمتقذ من الضلال وتهافت الفلاسفة والمتظهري والتبر المسبوك وغيرها.

(١) السبكي ج ٤ ص ٢٦٩.

(٢) السبكي ج ٤ ص ١٠٤.

(٣) السبكي ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) منه نسخة قديمة جداً يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٧هـ فى مكتبة جامعة - بيل - بنوهافن بأمریکا.

(٥) ومنه نسخة بخط الشروانى يرجع تاريخها إلى سنة ٦١٩هـ فقه شافعى رقم ٣١٦ - دار الكتب.

وكان اختياره للتدريس بالنظامية كالمعتاد على إثر مناظرة جرت بين يدي «النظام» في المعسكر توفيق في محاجة معارضيه وظهر عليهم فمنحه الوزير لقب - زين الدين وشرف الأئمة<sup>(١)</sup> - ولقى من أعلام بغداد ومعلميها - حين قدومه إليها- إعجاباً به وإقبالاً على محاضراته قلّ أن يتحقق لغيره من العلماء، وحضر دروسه - أبو الوفاء بن عقيل وأبو الخطاب، وتعجبوا من كلامه واعتقدوا فائدته ونقلوه إلى مصنفاتهم.

ولا نعرف أحداً من أساتذة النظاميات أحدث من حوله ضجيجاً علمياً كأبي حامد الغزالي هذا، فقد بدأ التساؤل عن حقيقة آرائه، والأخذ بنظرياته والإعراض عنها منذ أيام حياته حتى عصرنا الحاضر، وكتب عنه وعن مؤلفاته ما لم يكتب عن غيره، واشترك في اتهامه والذب عنه علماء المغرب والمشرق على السواء<sup>(٢)</sup>. . . ولذلك أصبح - عندما وضع رحله في المدرسة النظامية - ببغداد - مقصد هواة العلم، ومطمح كل هادف رفعة ومكانة، يشدّون إليه الرحال من كل فجّ وصوب، فكان من أشهر من صحبه وأفاد منه - أبو الفتح محمد بن عبد الكريم - الشهرستاني مؤلف كتاب «الملل والنحلّ، والعيون والأنهار»<sup>(٣)</sup>. ومن تتلمذ وتفقه على يديه: أبو إسحاق الغنوي الرقي الذي كتب الكثير من تصانيف أستاذه<sup>(٤)</sup>، وأبو طالب الرازي الذي كان يحفظ «إحياء» أستاذه<sup>(٥)</sup>، وأبو سعيد الجاواني الذي تحدّث بكتاب - إجماع العوام - عن أستاذه<sup>(٦)</sup>، وأبو سعيد النيسابوري صاحب المحيط في شرح الوسيط، والإنصاف في مسائل

(١) المنتظم ج ٩ ص ٥٥ - حوادث سنة ٤٨٤هـ.

(٢) المنتظم ج ٩ ص ١٧٠ - حوادث سنة ٥٠٥هـ.

(٣) انظر: السبكي ج ٤ ص ١٠٦-١٨٢، والمنتظم ج ٩ ص ١٧٠ - حوادث سنة ٥٠٥هـ، وابن خلكان

ج ٣ ص ٢٣٥٣، والصفدي في الوافي ج ١ ص ٢٧٤، والياقعي في المرآة ج ٣ ص ١٤٥ - ٢٠١،

وابن تغري بردي ج ٥ ص ١٣٤-٢٠٣، والبيهقي - تمة صوان الحكمة ص ١٣٧.

(٤) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢٠٠، ٢٥٨.

(٥) نفس المصدر.

(٦) الطبقات ج ٤ ص ٨٨.

الخلافاً<sup>(١)</sup> - وأبو عبد الله بن خميس الجهنى مؤلف: منهج التوحيد، ومنهج المريد، وتحريم الغيبة<sup>(٢)</sup> - وأبو عبد الله الطنزي الذى اتصل بالملك «زنكى بن آل سنقر» صاحب الموصل واستوزره<sup>(٣)</sup>، ثم محمد بن عبد الله بن تومرت المغربى. الذى أسس دولة الموحدين وألف لأتباعه كتاب «أعز ما يطلب»<sup>(٤)</sup> وغيرهم فى حياته وبعد مماته.

ولكن أبا حامد - لم يجد شفاء لغلته، وإرواء لعطشه بما وصله من جاه ومنزلة وبلغه من نفوذ وشهرة فأناج أخاه - أبو الفتوح أحمد بن محمد - فى التدريس بدلاً عنه وتوجّه نحو المسجد الحرام سنة ٤٨٨هـ ومرّ بدمشق وبيت المقدس ومصر، وعاد إلى بغداد ومنها إلى نيسابور حيث اضطره - فخر الملك ابن النظام - وكان يومذاك وزيراً للسلطان - محمد بن ملكشاه - للتدريس بنظاميتها. ولكنه سرعان ما غادرها ورجع إلى طوس حيث شيّد إلى جنب داره مدرسة للفقهاء ورباطاً للصوفية، ووزّع أوقاته على ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب. . والتدريس وأداء الفرائض حتى انتقلت روحه إلى بارئها سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م وهو يردد: «عليك بالإخلاص»<sup>(٥)</sup>.

هذه صورة تاريخية مصغرة لنظامية بغداد فى عهد «النظام» تاركين ما قدّر لها بعده من ظروف وأحوال لضيق المجال، ومهما قيل عن تعدد المدارس وأنه بنى فى كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة من الجدير بنا أن نضم إليها ما ثبت لدينا من نظاميات آخر لتجلى لنا تلك الصورة ناطقة الملامح واضحة السمات، وإن كانت صغيرة الحجم دقيقة الخطوط والقسمات.

(١) نفس المصدر ج ٤ ص ١٩٧.

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٢١٧.

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٠٨.

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٧١ - ٧٤.

(٥) المتظم ج ١ ص ٥ - حوادث سنة ٥٠٦هـ، والخنسارى - روضات الجنات ص ٧١٩، والبداية ج ١٢/١٣٧، وطبقات الشافعية ج ٤/١٠٣.

## ٢- نظامية نيسابور:

ونيسابور - كما عرفنا من قبل - مدينة أهلة بالسكان، عامرة بالمدارس لذلك اتخذ منها - طغرلبك وألب أرسلان - حاضرة لئلسلطنة، فهي بعد بغداد عاصمة الخلافة رتبة في حضارتها وسعتها، لذلك لم يرق - النظام - كرسى الوزارة حتى أمر بعودة النازحين منذ عهد «الكندرى» إلى أوطانهم، ولم يصل إمام الحرمين - الجوينى - إلى موطنه نيسابور حتى بنى له مدرسة على غرار نظاميته في بغداد، ظلت تتبادل معها الأساتذة والطلاب، وتشاطرها الدعاية ونشر العلم والإرشاد مدة طويلة إلى أن انقرضت.

لم تذكر المراجع التى أطلعنا عليها تاريخ إنشاء هذه المدرسة ولكننا إذا عدنا إلى القول المتفق عليه بأن «الجوينى» بقى مدرساً فيها قريباً من ثلاثين سنة غير منازع ولا مدافع<sup>(١)</sup>، مع علمنا أنه قد توفى سنة ٤٧٨هـ يكون عام افتتاحها ما بين سنة ٤٤٨-٤٤٩هـ وهذا ما لا يمكن أن يصحح لأن «النظام» لم يكن وزيراً بعد، غير أن المعروف بأنه حينما استوزر طلب إلى المهاجرين أن يعودوا وكان عام استيزاره من تلك المدة - على التأكيد - كان قد قضاها فى التدريس بالجامع «المنيعى» حينما أقعد فى التدريس مكان أبيه<sup>(٢)</sup>.

واستمر الجوينى - على ذلك - له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الذكر<sup>(٣)</sup>. وكان يحضر دروسه حوالى ثلثمائة طالب وقيل أربعمائة<sup>(٤)</sup> من بينهم العلماء وأبناء الصدور، وألف عدة كتب لتكون مرجعاً سهلاً فى تناول طلابه وغيرهم ومن أشهرها: النهاية فى الفقه والبرهان فى أصوله، والشامل والإرشاد فى أصول الدين، كما ألف برسم الحضرة النظامية ثلاثة كتب هى: الغياثى والنظامى والرسالة النظامية فقبولت بما يليق بها من الشكر والخلع

(١) طبقات السكى ج ٣ ص ٢٤٩، وابن الجوزى ج ٩ ص ١٨ - حوادث سنة ٤٧٨هـ.

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٤١، وابن الجوزى - المتظم ج ٩ ص ٢٠ - حوادث سنة ٤٧٨هـ.

والهدايا والرسوم<sup>(١)</sup>. وكان مجتهداً لا يتقيّد بقول الأشعري والشافعي<sup>(٢)</sup>. لذلك لم يقابل في اجتهاده بالرضا والاستحسان في بعض الأوساط السنية فأبو الوفاء بن عقيل - من معاصريه - يقول عنه: «وذكر الجويني في بعض كتبه ما خالف به الإجماع إجماع الأمة»<sup>(٣)</sup>، وأبوالفداء - بعد ذلك - يقول عنه: «وكان إمام الحرمين قد ادّعى الاجتهاد المطلق لأن أركانه حاصلة له ثم عاد إلى اللائق به وتقليد الإمام الشافعي»<sup>(٤)</sup>.

وكان من أشهر تلاميذه: أبو نصر القشيري، ذهب إلى الحجّ بعد تخرجه على إمام الحرمين وعند عودته عقد له المجلس في نظامية بغداد، وحضر مجلته الخواص وأحدث وعظه دويّاً عنيفاً في نفوس أنصار الشافعي ومناوئيه اهتزت له أرجاء العراق وأنحاء خراسان، واستمرت المعارك الدامية بين الحنابلة والأشاعرة قرابة خمسة أعوام - من سنة ٤٦٩ - ٤٧٥ هـ - فاستدعاه «النظام» وجهّزه إلى نيسابور فبقى فيها إلى أن مات سنة ٥٢٤ هـ<sup>(٥)</sup>.

ومن تلاميذه الحافظ - أبو الحسن عبد الغافر - النيسابوري صاحب كتاب - السياق - في تاريخ نيسابور، ومجمع الغرائب في غريب الحديث<sup>(٦)</sup>. وأبو سعد بن أبي صالح المؤذن الذي قرأ على أستاذه كتاب «الإرشاد»<sup>(٧)</sup> وأبو القاسم الأنصاري مصنف - شرح الإرشاد - وكتاب «الفقيه» وأمين خزانة الكتب

---

(١) السبكي ج ٣، ترجمة الجويني ص ٢٤٩-٤٨٢، وفي الوفيات ج ٢ ص ٣٤١، ومروءة الجنان ج ٣ ص

١٢٣ «العقيدة النظامية».

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٦٣.

(٣) المنتظم ج ٩ ص ١٩.

(٤) المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ٢٠٦.

(٥) المنتظم ج ٨ ص ٣٠٥-٣٠٧، وطبقات السبكي ج ٤ ص ٢٥١، ومروءة الجنان ج ٣ ص ٢١٠، وذيل

طبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٤-٢٨.

(٦) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢٥٥، والريفيات ج ٢ ص ٢٩٢.

(٧) الطبقات ج ٤ ص ٢٥٤.

النظامية بنيسابور<sup>(١)</sup> . وأبو محمد البيهقي إمام الجامع المنيعي ، وكان لسرعة قلمه أن خطّ كتاب أستاذه - لبيعه أكثر من عشرين مرة<sup>(٢)</sup> . ثم أبو نصر بن أبي بكر السراج الذي برع في الفقه حتى صار من المعيدين في درس أستاذه - الجويني<sup>(٣)</sup> .

ومما يرشدنا إلى مكانة هذه المدرسة ومنزلتها العلمية أنها كانت تخرج من العلماء من يصلح للتدريس في نظامية بغداد كالإمام «الغزالي» ، و «الطبري» ، و«الكبا الهراسي» فقد تخرّج هؤلاء على «الجويني» وصاروا من رؤوس المعيدين لدرسه ، وألّف ثالثهم: شفاء المسترشدين ونقد مفردات الإمام «أحمد» وكتاباً في أصول الفقه<sup>(٤)</sup> . . وأنها كانت تتقبل الأساتذة الزائرين فتعهد إليهم بإلقاء الدروس وقد زارها من «تفليس» المحدث أبو الفضل محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٢هـ شيخ الصوفيه ومؤلف كتاب «بستان العارفين» حيث قدم نيسابور وأمضى بالنظامية أياماً<sup>(٥)</sup> .

ومن أساتذة هذه المدرسة بعد الجويني الشيخ أبو سعيد بن أبي القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٨٤هـ . . كان يعقد مجالس الإملاء عشيات الجمع في النظامية ويخرّج بنفسه الحديث ويتكلم عن المتون ويستخرج المشكلات ويستنبط المعاني والإشارات ويزينّها بالحكايات والأبيات<sup>(٦)</sup> . .

ومنهم أبو المعاطي المعروف بالشهاب الوزير من أسرة «النظام» ، حيث تولى التدريس بمدرسة عمه ثم ارتفعت درجته حتى صار وزير السلطان «سنجر بن ملكشاه» إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ<sup>(٧)</sup> . ومنهم أبو المعالي مسعود بن الإمام أبي

(١) طبقات البكي ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٤٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٤) المنتظم ج ٩ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، والطبقات ، والكامل - حوادث سنة ٥٠٤هـ ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٩ .

(٥) الذهبي .

(٦) طبقات البكي ج ٣ .

(٧) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٥٤ .

المظفر الخوافي، تفقه على إمام الحرمين في النظامية ثم صار أحد مدرسيها ومات سنة ٥٦٦هـ.

وكان آخر من عرفنا من مدرسي هذه المدرسة - الإمام - أبو المعالي قطب الدين النيسابوري صاحب كتاب - الهادي - درس بنظامية نيسابور نيابة عن - ابن الجويني - ثم وصل إلى العراق والشام وألقى الدروس في مدارس دمشق إلى أن توفي سنة ٥٧٨هـ<sup>(١)</sup>.

### ٣- نظامية أصبهان:

كان لهذه المدينة من إقليم خراسان أهمية كبيرة لاتحصر في كونها مركزاً تجارياً أو علمياً فحسب، وإنما لموقعها الجغرافي المتوسط الذي جعل منها هدفاً للمتنافسين على العرش من آل سلجوق، فلم يثبت لطغرل بك السلطان حتى أغدق عليها الأموال وأنشأ فيها «الدور والمساجد في حدود خمسمائة ألف دينارخلال اثني عشر عاماً»<sup>(٢)</sup>، وبعد أن تسلم - ألب أرسلان - العرش «رسم لابنه ملكشاه - الإقامة فيها وضم إليه إقطاعها حتى يكون كالمطل على فارس وخوزستان والناظر إلى الجبل وأذربيجان، الذاب عن الري وخراسان»<sup>(٣)</sup> ولما ولي ملكشاه العرش جعل منها عاصمة ملكه وبنى فيها العمائر الفخمة والحدائق الغناء وأجرى فيها قنوات المياه، فإذا أمها المسافر رأى في مدخلها من الجنائن أربع لا ينقص مساحة إحداها عن ألف جريب منقعة الواجهة، وتبسم عن أقاحيها تغور نواحيها<sup>(٤)</sup>.

ولزيادة الترفيه عن أهاليها فقد توسط - النظام - للسلطان «ألب أرسلان» بأن يسقط عنهم التوزيعات والعلاوات ويمحى أرسة التوايع والمحالات، ولا يتجنّى على أحدالعمال والولاية إلاً بالحق ولا يؤخذ الجاني إلاً في جناية ظاهرة بشهادات متضافرة<sup>(٥)</sup>، وصدر بذلك مرسوم سلطاني علّق على أبواب المساجد

(١) طبقات السبكي ج - ص ٣٠٩، والوفيات ج ٤ ص ٢٨٣.

(٢) المافروخي - محاسن أصبهان ص ١٠١.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٢.

(٤) نفس المصدر ص ٥٣.

(٥) نفس المصدر ص ١٠٢.

ليتسامع به البعيد والقريب، وبذلك بلغت أصبهان من العمران والاستقرار درجة تحمدها عليها حواضر الأقاليم وربما عاصمة الخلافة أيضاً.

ولم يكف «النظام» سعيه هذا لرفع مستوى المدينة اقتصادياً حتى شملت عطاياها طلاب العلم ورواة الحديث وهواة الأدب بحيث لم يبق بها ناظم بيت ولا كاتب كلمة ولا مورد نكتة ولا متقن مسألة ولا حامل محبرة إلا أدر عليه مرسوماً، وأقام له رزقاً معلوماً، أو أقطعه حصّة أو ردّ عليه بالملكية مزرعة<sup>(١)</sup>، وشيّد لهم مدرسة لم تنشأ حتى أخذت تنافس نظامية نيسابور وبغداد بأساتذتها وتلاميذها. وقد وصفها لنا - المافروخي - فقال: «بأنها ابتنيت بجوار الجامع كأحسن ما رؤى هيئة وهيكلًا ومتعة وعملاً ومحلًا ومنزلاً، وعلى طرفيها منارة عجيبة الوضع رائعة الأصل والفرع، يصعد ثلاثة أنفس إلى أعلاها في ثلاث درجات فلا يرى أحد صاحبه إلى أن يعلوها، وقدرت ما انصرف في نفقاتها والموقوف عليها من الضياع والمستغلات الموسوم ابتياعها للوقف عليها عشرة آلاف دينار»<sup>(٢)</sup>.

وكان من أشهر مدرسيها: أبو بكر محمد بن ثابت الخجندی، ولأه «النظام» تدريس الفقه بها مدّة إلى أن توفي سنة ٤٨٣هـ<sup>(٣)</sup>، ثم درس بها ابنه - أبو سعيد أحمد - المتوفى سنة ٥٣١هـ<sup>(٤)</sup>، ثم أبو المعالي - فخر الدين الوركاني - وقد درس بها نيابة عن أولاد الخجندی حتى توفي سنة ٥٥٩هـ<sup>(٥)</sup>.

وقد بلغت نظامية أصبهان شأواً بعيداً في السمعة وحن الصيت فأخذ طلاب العلم يشدّون إليها الرحال بعد وفاة أبي إسحاق الشيرازي - عميد نظامية بغداد - للتعفّف على يد أستاذها الشهير - الخجندی - فوفد عليها - أحمد ابن سلام بن مخلد - المعروف بابن الرطبي ثم رجع إلى العراق<sup>(٦)</sup>، وأبو بكر

(١) المافروخي - محاسن أصبهان ص ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٥٠، ومرآة الجنان ج ٣ ص ١٣٤ .

(٤) طبقات السبكي ج ٤ ص ٥٠، والمتنظم ج ١٠ ص ٦٨ .

(٥) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢١٢، وقد ترجم له السمعاني في التحيير والعماد الكاتب في الخريدة .

(٦) ابن عساكر - التبيين ص ٣٢٢ .

أحمد بن محمد الأرجاني، حيث قضى عنفوان عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان إلى أن توفي سنة ٥٤٤هـ، وله ديوان شعر يتطوع<sup>(١)</sup>.

وكانت تسمى - الصدرية - حسب ما يذكر مؤلف - العراضة في الحكايات السلجوقية وكان من مدرسيها المشهورين - محمد بن ثابت الخجندی - الشافعي المتوفى سنة ٤٨٣هـ. ويقول المافروخي في كتابه - محاسن - أصبهان: «إن النظام» أنشأ هذه المدرسة قرب المسجد الجامع الذي كان قد أنشأه وكان عظيم الأبهة وله منارة يرقى إليها ثلاثة أشخاص من ثلاث ممرات». كما ذكرنا آنفاً.

#### ٤- نظامية مرو:

ويطلق عليها أحياناً - مرو الشاهجهان - تمييزاً لها عن «مرو الروذ» وقد اشتهرت في التاريخ الإسلامي بطبيعتها فاتخذ منها الخليفة - المأمون - العباسي مركزاً للملكة، كما جعلها الملك جغرى بك داود - حاضرة لبلاده ثم اختارها حفيده السلطان - سنجر بن ملكشاه - عاصمة لدولته إلى أن مات بها.

ويصفها لنا ياقوت، عند ما زارها سنة ٦١٣هـ وقضى فيها ثلاث سنوات ويطنب في وصفها ويشئى على خلُق أهلها ويدفع عنهم ما قيل من بخل وشح: «ولولا ما عراه من هجوم التتر عليها لما فارقها إلى الممات، لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول<sup>(٢)</sup>، وقد تركها سنة ٦١٦هـ وفيها عشره خزائن موقوفة لم ير فى الدنيا مثلها كثرة وجودة، كان من جملةها - خزانة نظام الملك الحسن بن على بن إسحق - فى مدرسته<sup>(٣)</sup>.

لقد أسّس «النظام» فيها مدرسة ووكل أمر التدريس فيها لأبى المظفر بن السمعاني «التميمي» بعد دخوله مرو سنة ٤٦٨هـ وانتقاله من مذهب أبى حنيفة الذى ظلّ يدافع عنه ثلاثين سنة إلى المذهب الشافعي، وكان لانتقاله صدى كبير أوقد نار الفتنة بين العراق وخراسان الى أن توفي سنة ٤٨٩هـ..

(١) ابن الجوزى - المنظم ج ١٠ ص ١٣٩، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧، وطبقات الشافعية ج ٤ ص ٥١، وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٣٧.

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٩.

(٣) المصدر السابق - مادة «مرو».

وكان ممن تفقّه عليه وقام بالتدريس نيابة عنه - أبو الفتح أسعد الميهني - ثم طاف حتى وصل غزنة ولاهور ثم قصد العراق ودرس بنظامية بغداد مرتين بعد الخمائة<sup>(١)</sup>.

وتفقّه على الأستاذ - السمعاني - وتلميذه - الميهني - كثيرون وبقيت المدرسة مقصد الطلاب والفضلاء من مختلف الأنحاء ينزلون فيها إذا وفدوا على مرو، ومن نزل فيها وسمع عنه الأحاديث «أبو سعيد بن أبي القاسم» البوشنجي المتوفى سنة ٥٣٦هـ<sup>(٢)</sup>، وأبو إسحاق إبراهيم الغزي من شعراء الشام الشهيرين الذي توفى سنة ٥٢٤هـ<sup>(٣)</sup> بعد أن خلف لنا ديواناً ضخماً مازال إلى اليوم مخطوطاً<sup>(٤)</sup>.

### ٥- نظامية عسكر مكرم :

وخوزستان إقليم واسع بين واسط والبصرة وجبال أصبهان<sup>(٥)</sup>، ومن مدنها الشهيرة - عسكر مكرم - والأهواز وتستر - وقد شيّدت هناك مدرسة «للنظام» أشار إليها «ابن الأثير» - بنظامية خوزستان<sup>(٦)</sup>، وذكر أحد المترجمين - من مدرسيها - يوسف الدمشقي - والذي نظّته أن المدرسة كانت في عسكر مكرم، وكان من أوائل من درس فيها القاضي الأصبهاني - أبو الوفاء محمد بن محمد - المتوفى سنة ٥٣٧هـ حيث وليّ القضاء في هذه المدينة ودرس بنظاميتها<sup>(٧)</sup>، ودرّس فيها كذلك «أبو المحاسن يوسف الدمشقي» حيث كان مدرساً في نظامية بغداد ثم بعث رسولاً إلى - شملة التركماني - في خوزستان ودرس في مدرستها ومات هناك سنة ٥٦٣هـ<sup>(٨)</sup>.

(١) طبقات السبكي ج ٤ ص ٢١ - ٢٦.

(٢) السبكي - الطبقات ج ٤ ص ٢٠٣، والمتنظم وابن خلكان، ومعجم البلدان، وتاريخ كزيدة.

(٣) السبكي - الطبقات ج ٤ ص ٢٠٦.

(٤) العماد الأصبهاني - الخريدة ج ١ ص ٣٢.

(٥) مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٩٠.

(٦) محمد عبد الرزاق - كتاب نظام الملك ص ٦٦٨.

(٧) الوافي بالوفيات ج ١ ص ١٤٤.

(٨) ابن الجوزي - المتنظم ج ١٠ ص ٢٢٦.

## ٦- نظامية البصرة:

وهي مدينة للعلم اشتهرت بمدرستها في النحو لذلك وقف «ابن بطوطة» أمام خطيبها عام ٧٢٦هـ ينظر إليه بعين الاستغراب والاستهجان وهو يلحن بعد أن أخلت من النحاة<sup>(١)</sup>.

ونظامية البصرة - كما يظهر - من رواية - هندوشاه - وغيره كانت أوسع من نظامية بغداد<sup>(٢)</sup>، وكانت ملتصقة بضريح «الزبير بن العوام» وبقيت تحتفظ بمكانتها وإقبال الدارسين عليها إلى أواخر عهد الخليفة «المستعصم بالله»، حيث تهدمت ونقلت أنقاضها إلى البصرة. ولكننا لانعرف متى بنيت ومن هم أشهر مدرسيها وتلاميذها على وجه التأكيد سوى - أبي الفضل الأنباري - من أعيان تلاميذ الإمام الشيرازي وصهر فخر الإسلام أبي بكر الشاشي، وليّ القضاء في البصرة والتدريس بنظاميتها إلى أن توفي سنة ٥٠٣هـ<sup>(٣)</sup>.

## ٧- نظامية الموصل:

وكان «للنظام» في شمال العراق مدرسة كما كان له في جنوبه. . وقد اختار لها مدينة «الموصل» البلد الإسلامي الواقع على شاطئ دجلة وأشهر مدن - جزيرة ابن عمر - ولا نستطيع أن نحدد زمن تأسيسها ولا في أي وقت كان انقراضها، وهل هي نظامية جزيرة ابن عمر نفسها أو غيرها؟، وكل ما نستطيع أن نتأكد منه: أنها كانت في الفترة بين أواخر القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس حيث توفي آخر من نعرفه من أساتذتها عام ٥٩٨هـ. .

ومن الغريب أن «ابن جبير» لم يذكر لنا شيئاً عنها حينما زار الموصل سنة ٥٨٠هـ على الرغم من أنه شاهد من المدارس نحو الست أو تزيد على دجلة وقال عنها: «إنها تلوح كأنها القصور المشرقة»<sup>(٤)</sup>. ولم يبق لنا من هذه المدارس

(١) ابن بطوطة - الرحلة .

(٢) تجارب السلف ، وروضة الصفا.

(٣) السبكي - الطبقات ج ٤ ص ٩٦ .

(٤) ابن جبير - الرحلة ص ١٨٠ .

القديمة سوى مدرسة - الطغرائي - محتفظة باسمها القديم، فليس غريباً بعد هذا أن وجدنا «ابن بطوطة» لم يشر إليها بشيء عندما مرّ بالموصل سنة ٧٢٦هـ، مع أنه وصف مساجدها وحماماتها وخاناتها وأسواقها كسابقه<sup>(١)</sup>.

والذى نميل إليه أنها هي التى عنها - ياقوت - بنظامية الجزيرة<sup>(٢)</sup>، وهى التى وصفها صاحب «الروضتين» بأنها مدرسة كبيرة حسنة، وأطلق عليها اسم مدرسة «الرضى»<sup>(٣)</sup> نسبة إلى لقب مؤسسها «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين حيث لم نجد فى كتب السير المعروفة لدينا غيرها بهذا الاسم أو عين المدينة التى بنيت فيها، على أن أحد مؤرخى آثار العراق المحدثين قد حدّد موقعها فى مقام - الإمام على الأصغر المعروف بمقام أبى على أو ابن محمد بن الحنفية - الذى يعرف بمشهد «يحيى بن القسم» الذى اتخذه بدر الدين لؤلؤ - فى هذه المدرسة التى بناها «النظام» على دجلة<sup>(٤)</sup>، فهو يقابل الجامع النورى، يفصل بينهما شارع، ولم يبق من آثارها إلا محراب نفيس من المرمر الأزرق المطعم بمرمر أبيض وحوله مكتوب بخط كوفى البملة وإنما يعمر مساجد الله<sup>(٥)</sup>.

أما الأساتذة الذين وردتنا أسماؤهم فإن أول من عرفناه منهم: الشهرزورى أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله الموصلى، ولى القضاء بالموصل ودرس بمدرسة أبيه وبالمدرسة النظامية إلى أن توفى سنة ٥٨٦هـ وعمره ٦٢ سنة<sup>(٦)</sup>، ثم - الدُّبلى - أبو العباس أحمد بن نصر الأنبارى - درس بالنظامية العتيقة بالموصل ولم يزل يدرس ويفتى إلى أن توفى سنة ٥٩٨هـ<sup>(٧)</sup>. ولعلّ

(١) ابن بطوطة ص ٢١٣، ٢١٤.

(٢) معجم البلدان - مادة «جزيرة ابن عمر».

(٣) الروضتين ص ٢٥٨.

(٤) العمرى - ياسين بن خيرالله، منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدياء ص ١٠٣، والهامش للناسر سعيد ديوجى.

(٥) سعيد الديوجى - تاريخ الموصل ج ١ / ١٣٤٤.

(٦) طبقات البكى ج ٤ ص ١٠٠، وابن خلكان ج ٣ ص ٣٧٩.

(٧) طبقات البكى ج ٤ ص ٥٧.

أول من درس بها القاضى أبو بكر محمد بن على الخالدى المعروف بالسديد،  
قاضى الموصل<sup>(١)</sup>.

## ٨- نظامية هراة:

وهراة ثغر على الحدود الشمالية «لأفغانستان»، ومن أمهات المدن فى إقليم  
«خراسان»<sup>(٢)</sup> وكانت من مراكز العلم ومتعصبى المتكلمين فى القرن الخامس  
الهجرى، وفى سنة ٤٧٨هـ حدثت بين أنصار الشافعى وأحد المتكلمين فتنة،  
وهجم المتعصبون على أبى سعد مدرس النظامية، وكان يقود حملة الحنابلة  
أبو عبد الله الأنصارى الهروى صاحب كتاب: منازل السائرين، والمناجاة،  
والنصيحة النظامية، فبعث «النظام» لإبعاده عن هراة حتى خبت الفتنة وأعيد  
سنة ٤٨٠هـ وبقي فيها إلى أن توفى سنة ٤٨٣هـ<sup>(٣)</sup>.

فكان لابد «للنظام» من أن يؤسس فى مثل هذه المدينة مدرسة لأصحاب  
الشافعى وما أن تمت حتى استدعى لها - أبو بكر الشاشى محمد بن على - من  
مشاهير العلماء بغزنة وصاحب التصانيف الكثيرة، فصعب على أهلها مفارقتة  
لهم، ولكنهم لم يجدوا بداً من امتثال أمر الوزير فجهزوه بعائلته إلى هراة  
فدرّس بنظاميتها إلى أن مات سنة ٤٨٥هـ وقيل سنة ٤٩٥هـ<sup>(٤)</sup>.

ومن أساتذتها أيضاً - أبو سعيد محيى الدين النيسابورى - صنّف كتاب  
المحيط فى شرح الوسيط - والانتصاف فى مسائل الخلاف، كان مدرساً بنظامية  
نيسابور ثم نقل إلى نظامية هراة، وبقي على تدريسها حتى استشهد على يد  
الغز سنة ٥٤٨هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) الديوجى - تاريخ الموصل ج ١ / ٣٤٤، عن رحلة ابن جبير / ١٨٠.

(٢) مراصد الاطلاع - مادة هراة.

(٣) ابن الجوزى - المنتظم ج ٩ ص ١٥، ١٦، وابن رجب البغدادى - ذيل طبقات الحنابلة ص ٦٦ - ٧١.

(٤) الذهبى - سير أعلام النبلاء مجلد ١١ ص ٥٣٤، والطبقات ج ٣ ص ٧٩.

(٥) ابن خلكان - الوفيات ج ٣ ص ٣٥٩ - مرآة الجنان ج ٣ ص ٢٩٠ - الكنى والألقاب ج ٢ ص ١٣٨.

## ٩- نظامية بلخ:

وهي من أجمل المدن في خراسان ذكراً، وأكثرها خيراً<sup>(١)</sup> يوم كانت بلاد ما وراء النهر جزءاً منها. وقد عُنِيَ بها السلاجقة فعمروها وبنوا فيها المساجد وشيّدوا فيها القصور، وأسّس فيها «النظام» مدرسة عهد بالتدريس فيها لأبي القاسم<sup>(٢)</sup> عبد الله بن طاهر، وكان إماماً في الفروع والخلاف والأصول. توفى سنة ٤٨٨هـ وكان معيداً فيها - أبو حفص عمر بن أحمد البلخي - المتوفى سنة ٥٢٦هـ<sup>(٣)</sup>. ثم أبو القاسم عبد الله بن عمر بن الطريف - من أهل بلخ ومدرس النظامية بها<sup>(٤)</sup>.

## ١٠- نظامية آمل:

وطبرستان بلاد واسعة تشمل مدناً كثيرة، وتسمى بـ «مازندران» أيضاً<sup>(٥)</sup>، وقد أورد لنا «السبكي» في طبقاته اسماً لشخصين درّس أحدهما وهو «أبو المحاسن الروياني» بنظامية طبرستان، وصنّف كتاب - البحر - في الفقه، وكان «النظام» كثير التعظيم له، ثم انتقل الى «آمل»، وأقام فيها حتى قتل سنة ٥٠٢هـ<sup>(٦)</sup>. وثانيهما سبطه وهو - أبو الفوارس هبة الله بن سعد - من أهل «آمل» طبرستان، وكان يدرّس بالنظامية التي بآمل إلى أن توفى سنة ٥٤٧هـ<sup>(٧)</sup>. والظاهر أنهما مدرسة واحدة وردت باسمين فظنها بعضهم مدرستين.

(١) مرصد الاطلاع - مادة بلخ.

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٠٤.

(٣) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٨٥.

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٣٥.

(٥) مرصد الاطلاع - مادة طبرستان.

(٦) هو عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد، اشتهر بالحفظ حتى روى عنه أنه قال «لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي» ذكره ابن السمعاني في اللذيل والجرجاني والعماد- طبقات السبكي ج ٤ ص ٢٦٥.

(٧) طبقات السبكي ج ٤ ص ٣٢١.

## ١١- نظامية طوس:

لم نجد بين المؤرخين وكتاب السير الذين قرأنا لهم من ذكر هذه المدرسة أو أشار إلى مدرسيها عدا مؤلف - صور الأقاليم - عند حديثه عن خراسان والذي يظهر من روايته أن «النظام» بنى في طوس مدرسة صغيرة قبل نظامية بغداد<sup>(١)</sup>، إلا أننا لا نجد غرابة في هذا إن صحت الرواية فإن طوس مهبط رأس «النظام» ومقرّ دراسته في الصبا، ثم هي المدينة التي أقطعها له السلطان ملكشاه تقديراً لجليل خدماته للدولة، فأصبحت بذلك من ممتلكاته فضلاً عن أنها من أحبّ المدن إلى نفسه.

ولم تزل - طوس - حتى اليوم تحتفظ بمكائنتها العلمية ومكتبتها الغنية بنوادير المخطوطات القديمة.



---

(١) محمد عبد الرزاق - نظام الملك - ص ٦٧١ عن صور الأقاليم في تاريخ خراسان.

## المكتبات النظامية (المدرسية والخاصة)

لم يكن الحصول على الكتب مهما صغر حجمها، وتضاءل موضوعها بالأمر الهين اليسير آنذاك، ولولا كثرة المحترفين للنسخ وتفرغهم لبلغت أثمانها أضعاف ما وصلت إليه، واستحال على الباحثين - وجلهم إن لم يكونوا كلهم من الفقراء - اقتناؤها. وإنَّ ما بقى من تراث مخطوط يملأ رفوف المكتبات فى عواصم الغرب والشرق على الرغم من الأحداث التى عفت على أكثره يدلنا على غزارة ذلك التراث وضخامته، كما أن ما ذكره لنا صاحب - المكافأة - من أن ثمن النسخة المجلدة من كتاب «المجسطى» لبطليموس القلوذى - عشرون ديناراً<sup>(١)</sup>، إنما هو مبلغ باهظ فى ذلك الوقت ويصعب على الطالب صرفه من أجل كتاب واحد.

لذلك . . ومن أجل نشر العلم وغيره من أسباب، فكّر الموسرون من العلماء ورجال الحكم فى تأسيس دور جمعوا فى غرفها مختلف المخطوطات فى تلك العصور مما يهّم المتعلم والمعلّم معاً حتى كانت الدور التى أطلق عليها اسم دار الحكمة - حيناً - ودار العلم - أحياناً - إنما هى دور للكتب فى الواقع وليست مدارس للتعليم بالمعنى الدقيق . . وكانت الخزائن التابعة للمدارس النظامية واحدة منها وإن لم تكن أولها.

لم يقدر للخزانة النظامية الأولية فى ميلادها حيث سبقتها أخرى تضم مئات الكتب فى العلوم المختلفة . . وإن تاريخ الخزائن هذه يسبق المدارس بمعناها الذى

(١) ابن الداية - المكافأة حسن العقبى ص ١٤١ .

استحدثت في عهد «النظام» بقرون طوال، فقد حفلت عواصم الممالك في العراق ومصر والأندلس وفارس بمكتبات تضم بين جدرانها آلاف المجلدات في أنواع المعارف والفنون.

وكانت خزائن الكتب هذه انتشرت في المناطق التي أسّس «النظام» فيها مدارسه ومكتباته قبيل ظهوره، وكان من أهمها وأشهرها خزانة الكتب لأبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الشافعي الموصلی<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٣٢٣هـ ودار الكتب في البصرة لأبي منصور عبد الله بن محمد المعروف بابن شاه مروان الوزير<sup>(٢)</sup>، وأخرى لأبي علي بن سوار الكاتب من رجال عضد الدولة والتي قال عنها ابن الجوزي حينما احترقت عام ٤٨٣هـ إنها أول دار كتب عملت في الإسلام<sup>(٣)</sup>، ثم دار العلم التي أنشأها في محلة الكرخ في الجانب الغربي ببغداد سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٤١٦هـ وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة البويهى، التي كانت تحوى عشرة آلاف كتاب وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم، وفيها مائة مصحف بخطوط ابن مقلة<sup>(٤)</sup> والتي كان من روادها: أبو منصور محمد بن إسحاق الكاتب، وأبو منصور محمد بن أحمد الخازن ثم الشريف المرتضى، وأبو العلاء المعرى الذي قال فيها بيتين من الشعر أثارهما سجع حمامة كانت تنوح على غصن شجرة في تلك الدار:

وغنّت لنا في دار سابور قينة      من الورق مطرابُ الأصائل ميهال  
وأنت زهراً غصّاً فهاجت بمزهر      مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

وبلغت شهرتها مصر فثبّدوا على غرارها دار الحكمة في عهد الحاكم بأمر

(١) ياقوت - معجم الأدياء ج ٦ ص ١٩٧.

(٢) ابن الأثير - الكامل ج ١٠ ص ١٢٢، وكشف الظنون ص ٦٢٢.

(٣) ابن الأثير - الكامل ج ١٠ ص ١٣٢ - ابن الجوزي - المنتظم ج ٩ ص ٥٣ - حوادث سنة ٤٨٣هـ.

(٤) ابن الجوزي - المنتظم ج ٧ ص ١٧٢، وياقوت - معجم البلدان - بين السورين ج ١ ص ٢٤٢، وابن خلكان - الوفيات ج ١ ص ٢١٧، ومختصر مناقب بغداد ص ٢٨، والكامل ج ١٠ ص ٥ - حوادث

سنة ٣٨٣هـ.

الله سنة . - ٤٠ هـ<sup>(١)</sup> وفى أثناء ثورة البساسيرى وعودة طغرلبيك لحربه (ما بين سنة ٤٥٠-٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) كادت تلتهمها - أى دار سابور - السنة النيران، ونهب العامة بعض كتبها فأبعدهم «الكندرى» واختار لنفسه خير ما بقى منها فصب صنيعه إلى سوء سيرته<sup>(٢)</sup>.

ومثل هذه الدور فى العراق كانت دور للعلم منتشرة فى فارس من أهمها: دار أبى منصور بهرام بن مافطة الكازرونى - وزير - أبى كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة المتوفى سنة ٤٢٣ هـ، وقد أنشأها فى فيروز آباد وجمع فيها تسعة عشر ألف مجلد منها أربعة آلاف ورقة بخط ابن مقلة<sup>(٣)</sup>. ثم خزانة الكتب التى نقلها عضد الدولة<sup>(٤)</sup>، والتى أنشأها - أبو جعفر المهلبى - فى همدان وكانت تحتوى على اثنى عشر ألف كتاب، وفى بخارى بنى السامانيون داراً جمعوا فيها من كتب علوم الأوائى فى الفلسفة والفقه والعربية الشئ الكثير<sup>(٥)</sup>. وفى غزنة علمنا من قبل كيف شيّد السلطان محمود جامعاً وبجواره مدرسة ومكتبة.

وعلى غرار هذه الدور وبنفس الدافع الذى حمل «النظام» على تأسيس مدارسه ألحقَ بكل واحدة منها مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادى المؤلفات فى العلم والأدب، وقد نمت هذه المكتبات وبخاصة المكتبة التابعة لنظامية بغداد حتى بلغت بعد قرن من وفاة «النظام» ستة آلاف مجلد كما أخبرنا ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) عندما نظر فى ثبت الكتب الموقوفة<sup>(٦)</sup> فقط،

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢.

(٢) الحسينى أخبار الدولة السلجوقية ص ١٧ - ابن الجوزى - حوادث سنة ٤٥١ هـ ج ٨ ص ٢٠٥-٢١٦، والبداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩.

(٣) ابن الجوزى - المتظم ج ٨ ص ٦٥-١١١.

(٤) المقدسى - أحسن التقاسيم ص ١٣٣، ٤٤٨.

(٥) ابن سينا - نكت فى أحوال الشيخ ابن سينا ص ١٥.

(٦) ابن الجوزى - صيد الخاطر ص ٣٦٦ - كوركيس عواد - خزان الكتب القديمة فى العراق.

وكانت مثلها مكتبة النظامية بنيسابور وأصبهان ومرو... فقد زار ياقوت الحموي هذه المدينة الأخيرة عام ٦١٣-٦١٤هـ ووصف خزائنها العشر ومنها الخزانة النظامية وما أفاده من ذخائرها في تأليف كتبه ولا سيما - معجم البلدان، بحيث أنسته كل بلد، وألهته عن الأهل والولد - وكثيراً ما كان يترنم بقول بعض الأعراب<sup>(١)</sup>:

أقمرية الوادى التى خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب  
تعالى أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرور الشاهجان غريب

وقد ظفرت هذه الخزائن بطرائف المخطوطات وأئمن المؤلفات، لعل من المفيد أن أشير إلى بعض ما اطلعت عليه خلال دراستي هذه فإن معظمها مازال مفقوداً حتى اليوم، ولأن طراز نسخها وموضوعاتها تلتقى لنا ضوءاً على لون الدراسات ونوع الكتب التى كانوا يعنون بها حينذاك.

فمن أوائل تلك الطرائف الغالية التى احتوت عليها خزانة نظامية بغداد كتاب - المحيط - فى تفسير القرآن تأليف القاضى - عبد الجبار الهمذانى - فى مائة مجلد، وقد اعتمد فيه على كتاب «المختزن» الذى ألفه - أبو الحسن الأشعري - فى خمسمائة مجلد. . روى لنا هذا الخبر - القاضى أبو بكر بن العربى فى عواصمه - وأنه قرأ الأول فى خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام<sup>(٢)</sup>، وقد ورد ذكر هذا الجزء فى كتاب - العصا - لابن منقذ - نقلاً عن والده أنه كان فى زيارة لأبى يوسف ببغداد، وكان قد بلغ من العمر عتياً ونسى كثيراً مما كان يذكره قال: فلماً عرفنى بعد السؤال استخبرنى عن طريقى فعرفته توجهى إلى دركاه السلطان - يقصد ملكشاه - فقال: «تبلىخ خواجا بزرك نظام الدين (يعنى نظام الملك) سلامى وتعرفه أن الجزء الأول من التفسير الذى جمعته قد ضاع وهو تفسير - بسم الله الرحمن الرحيم - واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التى فى خزائنه وينفذه لى...» إلى أن يقول: «وكان

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٩.

(٢) وذكر المقرئى أنه فى سبعين مجلداً، ويقول التاج بن السبكي إنه اطلع على مجلده - (ابن عساكر - التبيين ص ٢٩).

قد جمع تفسير القرآن في مائة مجلد<sup>(١)</sup>. وحكى أن الصحاب بن عباد بذل فيه عشرة آلاف دينار للخازن في دار الخلافة وألقيت النار في الخزانة فاحترقت النسخة الوحيدة بين تلك الكتب<sup>(٢)</sup>. وقد يكون هذا من مختلقات أبي حيان التوحيدى على الصحاب وإن عوّل عليه في العواصم<sup>(٣)</sup>. وما يرفض هذا الاختلاق وجود نسخة أخرى منه في خزانة النظام بأصبهان وليست هي النسخة الوحيدة كما زعم.

وثانى المؤلفات الثمينة ما ذكره المؤرخون في ترجمة - عبد السلام بن بندار المعتزلى المتوفى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) قيل إنه قدم بغداد عقب عودته من مصر ومعه عشرة أحمال كتب وأكثرها بالخطوط المنسوبة، وقيل إنه ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، كما قيل إنه كان يحضر بيع كتب السيرافى فيشترى منها كل أسبوع بمائة دينار<sup>(٤)</sup>.

ولكن أسامة بن منقذ - وهو ممن ولد بعد وفاة «النظام» بثلاثة أعوام يخبرنا نقلاً عن أبيه - وكانت له صلة بأبى يوسف القزوينى أوجبت زيارته له بأصبهان أنه عندما سافر إلى مصر فى أيام الحاكم بأمر الله أحسن إليه وأكرمه ووصله بصلات سنّية، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب، ثم ركب مركباً وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل<sup>(٥)</sup>.

ولعل الكتب التى أهداها - ابن بندار - إلى «النظام» كانت من جملة ما اختاره من خزانة دار خلافة الحاكم بأمر الله . . وهى أربعة أشياء لم يكن لأحد مثلها،

---

(١) أسامة بن منقذ - العاصم ص ١٨٢، المجموعة الثانية من نواذر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون).

(٢) أبو بكر المعافى - العواصم من القواصم ج ١ ص ٧٥.

(٣) ابن عساكر - التبيين ص ١٣٦.

(٤) الذهبى - تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧، وسير أعلام النبلاء م ١١ ص ٥٦٢.

(٥) أسامة بن منقذ - العاصم ص ١٨١ من المجموعة الثانية - نواذر المخطوطات (نشر عبد السلام هارون ص ٣٧٦).

منها: غريب الحديث لإبراهيم الحريبي بخط أبي عمر بن حيويه في عشر مجلدات فوقه «النظام» بدار الكتب ببغداد، ومنها شعر الكميث بن زيد بخط أبي منصور في ثلاثة عشر مجلدًا، ومنها عهد القاضي عبد الجبار بخط صاحب بن عباد وإنشائه يصفه بأنه في سبعمائة سطر كل سطر في ورقة سمرقندی وله غلاف آبنوس يطبق كالأسطوانة الغليظة، والرابع مصحف بخط منسوب وبين أسطره القرآن بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزرقاء. وكتب بالذهب علامة على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب في التعازي والتهاني<sup>(١)</sup>.

وما أراد «النظام» أن يتقبل هذه الهدية السنية دون مقابل فأعطاه ثلثمائة دينار. . . وهي لاشك قليلة بالنسبة إليها لذلك سمعنا ابن بNDAR يقول لمن سأله عن ذلك: «لقد أعطيت أكثر ما أعطاني ولكن رضيت منه بالإكرام وعذرتة حين قال: ليس عندي حلال لا شبهة فيه سوى هذا القدر»<sup>(٢)</sup>.

### خازنوها ونوادير المخطوطات فيها:

ولاجل المحافظة عليها وتنظيم فهارسها فقد رتب لها خزنة وموظفين وكان الخازن بمنزلة أمين المكتبة يتقاضى راتبًا قدره عشرة دنانير<sup>(٣)</sup> وقد رفعها «النظام» إلى خمسة عشر دينارًا في مناسبة خاصة<sup>(٤)</sup>، ومن عاصره منهم:

١- القاضي أبو يوسف يعقوب بن سليمان الإسفرايني<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ٤٩٨هـ (١١٠٤م).

٢- يحيى بن عليّ أبو زكريا بن الخطيب التبريزي<sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م).

(١) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ٢٣.

(٢) الذهبي - تاريخ الإسلام م ١٢ ورقة ١٧.

(٣) هندوشاه - تجارب السلف ص ٣٣٤.

(٤) القزويني - آثار البلاد ص ٣٢٧.

(٥) ياقوت - معجم الأدياء ج ٦ ص ٣٤٣.

(٦) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٨٦، وبغية الدعاة ص ٤١٤.

٣- محمد بن أحمد الأبيوردى<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م).

أمّا المدرسة النظامية بنيسابور فقد حظيت خزانتها بديوان - أبى على الكافى العُهمانى - وأبى المظفر ناصر بن محمد - وقد ظفر الباخرزى بالأول وكان على جناح سفره فلم يتمكن من احتلاب درّه، ولم يتوصل إلى اجتلاب درّه<sup>(٢)</sup>، كما عثر على الثانى والتقط منه أبياتاً أحيى بها مواته، ونشر رفاتة<sup>(٣)</sup>.

ثمّ كتاب الحيوان بالفارسية للفقير الحكيم أبى عبيد عبد الواحد الجوزجانى من خواص تلاميذ - أبى على بن سينا - وندمائه شارح رسالة حى بن يقظان ومفسّر مشكلات القانون<sup>(٤)</sup>. . ثمّ كتاب «المفارقات وإعداد العقول والأفلاك وترتيب المبدعات لأبى عبد الله المعصومى الحكيم» من أفضل تلامذة ابن سينا، وهو الذى صنّف - أبو على - باسمه كتابه فى - العشق - يقول عنه البيهقى: «وكان فى الخزانة النظامية بنيسابور نسخة من كتاب - المفارقات - فأخذها - جمال الملك بن «نظام الملك» - ولا ندرى أطارت بها العنقاء أم أدركها الفناء؟»<sup>(٥)</sup>.

وأما خزانة الكتب النظامية فى أصبهان فقد احتفظت - بكتاب معارضة الحماسة - لأبى الفضل الأصبهانى الذى عارض فيه كل بيت منها بيت من قوله<sup>(٦)</sup>.

### الخزانة النظامية الخاصة:

تلك هى إشارة عابرة عن المكتبات النظامية العامة وما قام به «النظام» من فضل فى سبيل نشرها وفتح أبوابها للقاصدين من العلماء والوافدين من

(١) معجم الأدياء ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٢) الباخرزى - الدمية ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) البيهقى - تنمة صوان الحكمة ص ٩٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٦) القفطى - أخبار العلماء والحكماء ص ٣٢٨ .

الطلاب.. أما الخزانة الخاصة فقلما يخلو منها بيت عالم ثرى، وقد اشتهر منها في المائة الخامسة: خزانة الشريف الرضى، وأخيه المرتضى، والخطيب البغدادي، وغرس النعمة الصابي، وابن جزلة البغدادي وغيرها<sup>(١)</sup>.

« وكان «النظام» - وقد اجتمع لديه العلم والشراء - مكتبة خاصة قال عنها - الباخري - : «إنها غاية في القيمة»، وكان يصرف مكافأة لمن يسافر إليها من الطلاب<sup>(٢)</sup>، وكان قد جمعها عن طريق الإهداء والشراء وتآليف العلماء التي صنفت باسمه.. وقد يكون من النافع جداً أن نلمح لبعضها على سبيل المثال، لتجلى لنا صفحة أخرى من سيرة «النظام» بالنسبة لصلة علماء العصر به وموقفه منهم.

فمن أقدم ما عرفناه من مؤلفات باسم «النظام» كتاب - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرقة الهالكين - للشيخ الإمام/ أبي المظفر طاهر بن محمد الاسفرايني المتوفى سنة ٤٧١هـ<sup>(٣)</sup>، وكان أصولياً فقيهاً سافر في طلب العلم وارتبطه «نظام الملك» بطوس<sup>(٤)</sup>.

ولنتمع إلى المؤلف نفسه في المقدمة فهو يقول: «لما كان الشيخ الأجلّ الوزير (أبو علي الحسن بن علي بن إسحق) قد خصّه الله بجلال نعمه وفضائل قسمه.. قائماً بنصرة أهل الدين، سيقاً مصلتاً على أهل الزيغ والمبتدعين.. ناظراً لأهل الدين ومناهجهم وأهل الدنيا ومصالحهم.. ولما كان بابه الرفيع مصطفق الرفاق، وملتقى الرجال من كل أدب في الآفاق، وكان فيهم الأصناف المختلفة، والأجناس المتباينة وكان بلطف نظره يتأمل عقولهم

---

(١) انظر: في ذلك تراجمهم في معجم الأدباء لياقوت، وكتاب: خزائن الكتب القديمة في العراق لكوركيس عواد.

(٢) الباخري - دمية القصر ص ٧.

(٣) وفي كشف الظنون لحاجي خليفة ج ٢ ص ٢٣٩: شهور بن طاهر الشافعي.

(٤) ابن عساكر - التبيين ص ٢٧٦ - السبكي ج ٣ ص ١٧٥.

وأحوالهم ليرفع من كان فى دينه رفيقاً، ويضع من كان فى طريقه وضيعاً، جمعت لشريف خزانته كتاباً، فارقاً بين الفريقين جامعاً بين وصفى الحق وخاصيته والإرشاد إلى حججه، ووصف الباطل وحدّ شبهه»<sup>(١)</sup>..

وثانى ما عرفناه من الكتب التى ألفت باسمه مجموعة تحتوى على ثلاث رسائل هى: الغياثى والنظامى والعقيدة النظامية - صنّفها الإمام - أبو المعالى الجوينى - أستاذ نظامية نيسابور وعميدها، وعنونها بألقاب الوزير غياث الدولة ونظام الملك وعقيدته، فلقبت من المهدى إليه كل رعاية وشكر وتشجيع وقوبلت بالخلع والهدايا والرسوم<sup>(٢)</sup>.

هكذا وردتنا بأسماء ثلاثة كما ذكرها معظم الذين ترجموا لأبى المعالى الجوينى.. غير أنا بعد مراجعة الفهارس والكشوف لأمهات المكتبات لم نظفر بمن يتعرض لوصف الكتاب الثانى، أو نعر على ما يثبتنا بموضوعه - النظامى - أو عن أى شىء يتصل به، لذلك أصبح من المحتمل أن يكون الكتاب قد ضاع كغيره من آلاف الكتب التى فقدت وبقيت أسماؤها أو أن الكتاب هو نفسه الذى أطلق عليه - العقيدة النظامية.

ليس من اليسير الجزم بأحد الاحتمالين ولكن المنطق يميل بنا إلى الثانى، إذ ليس من المعقول أن يؤلف كتاب باسم النظامى وآخر باسم العقيدة النظامية عدا فقدانه وعدم وجود تفصيل عنه.. أما الكتابان الآخران فقد قرأنا عن أولهما باسم - غياث الأمم والتيات الظلم - فى الإمامة وهو كتاب صنّفه - الجوينى - للوزير غياث الدين «نظام الملك» وسمّاه الغياثى، سلك فيه غالباً مسلك الأحكام السلطانية<sup>(٣)</sup>.. «ولم يزل مهملاً فى زوايا الظلم قابلاً فى مطاوى النسيان، ما أحوج المكتبة العربية لإخراجه إلى عالم النور، والإفادة منه فى موضوع الإدارة والنظم بعد أن صانته الأقدار من التمزيق وحفظته الصدفة من الضياع».

(١) التبصير فى الدين ٣، ٤.

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٤٩ - ٢٨٢.

(٣) حاجى خليفة - كشف الظنون ج ٢ تحت رقم ٤٠ سياسة واجتماع، وعدد أوراقيه ثمانون.

وكان ثانيهما خيراً من سابقه حظاً، فقد خصّ بعناية أحد الباحثين المحدثين ونشره معتمداً على مخطوطة واحدة<sup>(١)</sup>، فخرج إلى دنيا المتعلمين، ولكنه - مع الأسف - كثير التصحيف والأغلاط فضلاً عن أنه يحوى القسم الأول الخاص بالعقيدة، وأصول الدين من الكتاب فقط دون تكملته فى التشريع وأركان الإسلام.

وكان الجوينى فى رسالته يريد - كما تنص مقدمتها - أن تنوب عنه فى تمهيد معاذيره وتشعر ببذله المجهود فى الخدمة وتشهيره . . ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ومتضمنها عقائل العقول . . وقد صدرها بقواعد عن العقائد على أساليب لم يسبق إليها، ثم أتبعها بما لا يسوغ الدهول عنه من أركان الإسلام وسمّاها - النظامية فى الأركان الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

وآخر ما عرفناه من الكتب التى وضعت باسمه هو كتاب دستور اللغة - لمؤلفه بديع الزمان تظنرى المتوفى سنة ٤٩٧هـ، وقال المؤلف على هامش المقدمة بخطه: حرّرها الشيخ الأديب ذو اللسانين أسعده الله فى الدارين للمجلس الشريف النظامى لازال قصر عمره عامراً . . . إلخ<sup>(٣)</sup>. ولكن بعض الفهارس تذكر أنه ألفه لمجلس الأجلّ جمال الملك النظامى . . . إلخ<sup>(٤)</sup>. ولعلّ هذا من خطأ الطبع ولو كان صواباً لآتى فى مقدمته بما يوضح هذا اللبس.

### أثر النظاميات فى المدارس الأخرى:

وبعد فقد وفق «النظام» توفيقاً قلّ نظيره فى التاريخ السياسى والعلمى والدينى جميعاً، فقد عاشت مدارسها أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى

(١) العقيدة النظامية - الجوينى - تصحيح وتعليق: محمد زاهد الكوثرى ط مصر / ٩٤٨.

(٢) مقدمة الكتاب ص ٨.

(٣) ويسمى باسم كتاب «الخلاص»، وأيضاً ذكره كشف الظنون والسمعانى فى الأنساب، ومعجم البلدان - عدد أوراقه ١٦٨ تحت رقم ٧٠٣٩، فهرس كتبخانة مجلس.

(٤) هو أبو عبد الله حسين بن إبراهيم، وله كتاب المرقاة فى اللغة الفارسية، وذكره السيوطى فى البغية. فهرست كتبخانة - سیهسالار ج ٢ ص ١٧٩.

طاولت الزمن زهاء أربعة قرون<sup>(١)</sup>، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس - الفيروز آبادي - المتوفى سنة ٨١٧هـ، حيث زالت في نهاية القرن التاسع الهجري<sup>(٢)</sup>. وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنّي الشافعي دين الدولة الرسمي يومذاك ومذهب الخلفاء منذ عهد الخليفة - القادر بالله - في الثلث الأول من القرن الخامس، وإن كان الخلفاء أحنافاً في أغلب الأحيان ومالكية في بعضها<sup>(٣)</sup>. وزوّدت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستيفاء وهي من أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر وبلغوا شمال أفريقيا وأسّسوا دولة الموحدين التي كان لها أثرها في تاريخ المغرب العربي في القرن السادس الهجري<sup>(٤)</sup>.

وكان من مظاهر توفيق «النظام» في مشروعه العلمي الجديد أيضاً أن صارت مدارسه معاهد للبحث العلمي النظري ومركزاً لتبوعات الباحثين في مختلف الثقافات الوافدة والأصيلة، وظهرت ثمارها في المؤلفات العلمية والدواوين الشعرية باللغتين الفارسية والعربية، التي رأينا قسماً ضئيلاً منها ونحن نستطرد الحديث من الناحية العلمية والمدارس النظامية.

وكان من أهم ظواهر التوفيق أن صارت النظاميات مدعاة لبناء المدارس، ومثاراً للتنافس بقدر ما أصبحت نموذجاً يقتديه مؤسسو المعاهد منذ بداية تشييدها إلى ما بعد ذلك بعصور طويلة، ولعلّ أول تلك المدارس التي اتخذت من النظامية حافزاً ومنافساً لها وشيّدت على غرارها هي مدرسة أبي سعيد المستوفى بباب الطاق فقد دخل مؤسسها بغداد عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م وشهد نواب «النظام» يبنون له مدرسة ولم يغب عليه مدى تحمسه لمذهب الشافعي بينما كان

(١) نظامية بغداد.

(٢) ابن العماد - شذرات الذهب ج ٦ ص ٣٥١.

(٣) المنتظم ج ٨ ص ١٠٩، ١٤٩، ٢٠٧.

(٤) السبكي - ترجمة عبد الله بن تومرت ج ٤ ص ٧١ - ٧٤.

هو متعصباً لأصحاب أبي حنيفة فبنى لهم مدرسة باب الطاق إزاء قبر «أبي حنيفة» وألحق بها خزانة للكتب وكان ممن أوقف عليها كتبه<sup>(١)</sup> سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م قبيل افتتاح النظامية بأشهر، وبنى أخرى بمرور ووقف فيها كتباً نفيسة<sup>(٢)</sup>.

وثاني تلك المدارس التي جعلت من نظامية بغداد نموذجاً لها ثم طمعت في منافستها واحتلال مكائنها هي المدرسة - التاجية - التي أمر ببنائها - تاج الملك أبو الغنائم - عند دخوله بغداد مع السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ وعند استيزاره تحلفاً «لنظام الملك» .

ثم المدرسة النظامية بخوارزم التي أسّسها - نظام الملك - الصغير، حفيد «نظام الملك» الكبير وقد اشترك معه في اللقب والوزارة والتحمس للمذهب الشافعي وحسن الخاتمة<sup>(٣)</sup>. ثم المدرسة «الشرفية» نسبة إلى شرف الدين أبي طالب المتوفى سنة ٥٦١هـ. وكان قد درس بنظامية بغداد على يد أبي بكر الشاشي وأسعد الميهني ثم رحل إلى حلب وبنى مدرسته هذه على نمط النظامية وهي أول مدرسة شيدت في حلب<sup>(٤)</sup>.

ثم المدارس - الواسطية - كمدرسة خطلوبيرس<sup>(٥)</sup> - ت ٥٦١هـ، ومدرسة -

---

(١) ابن جزلة - الطيب - راجع المتظم ج ١١٩/٩، والتكملة ج ٨٨٧/١.

(٢) ابن الجوزي - المتظم ج ٨/ ٢٤٥، والبنداري: زبدة النصره/٣٢ حيث يقول: ووجدهم شرعوا في بناء المدرسة فاغتنم اقتداره على الاقتداء . مصطفى جواد مجلة المعلم الجديد في بغداد ج ٦ سنة ١٩٤٠م.

(٣) هو مسعود بن علي كان وزيراً للسلطان - خوارزمشاه، وأعزم ببناء المدارس ثم اغتيل على يد الملاحدة سنة ٥٥٦هـ (طبقات البكي ج ٤ ص ٣٠٩).

(٤) هو عبد الرحمن بن حسن بن عبد الرحمن المشهور بابن العجمي الحلبي، وتعرف مدرسته هذه بالزجاجية أيضاً لأنها بنيت بسوق الزجاجين، ثم جدّد بناءها الأمير - بدر الدين سليمان بن أرتق. (انظر: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٢٥٠) ثم أعيد بناءها سنة ١٣٤٠هـ وجمع فيها ما بعثر من كتب في الزوايا والتكايا والمساجد ودعيت بدار كتب الأوقاف الإسلامية.

(٥) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٩، ومخطوطة الدينني في المكتبة الأهلية بباريس، ناجي معروف: المدارس الشرايية ج ٢٦٥.

شرف الدولة محمد بن ورام<sup>(١)</sup>، والمدرسة الشرفية الشرايية<sup>(٢)</sup> ت  
٦٥٣هـ.

ثم المدرسة المنتصرية التي بدئ في عمارتها سنة ٦٢٥هـ وتمت سنة  
٦٣٠هـ، وقد وصف لنا حفل افتتاحها وأدواتها ونظمها -الصلاح الصفدى<sup>(٣)</sup> -  
كما وصف لنا موقعها وكيفية التدريس بها- ابن بطوطة<sup>(٤)</sup> - ولم تزل - على  
الرغم من مناهضة التتر والأتراك العثمانيين لها<sup>(٥)</sup> - تحتفظ بأروقته وأساطينها  
كما تحتفظ جدرانها بأى القرآن في أعاليها وعلى أطرافها وفوق طبقات أبوابها،  
وإلى جنبها دار حفظ القرآن، ولكن اتخذت منه - وزارة الأوقاف - دكانًا  
تستأجره لاسكافى - كما شاهدت - مع الأسف - ومن دار الحديث مقهى يروده  
العامه لشرب الشاي والتلهية بلعب الشطرنج والنرد وأمثالها. كان هذا في عام  
١٩٥٤م. أما الآن فقد بذلت الجمهورية العراقية جهداً لإعادة مكانتها وترميم  
أروقته.

وآخر ما نعرفه من أمثلة هذه المدارس التي كانت صدى للحركة العلمية التي  
أحدثها «النظام» في الشرق الإسلامى هي المدرسة «المرجانية» التي أشرنا إليها  
سابقاً، فقد حاول - مرجان<sup>(٦)</sup> - في شهور سنة ٧٥٨هـ أن يشيد مدرسة عليا  
يحاكى بها - النظامية - من حيث بناؤها ومناهج دراستها، وتنظيم إدارتها،  
وأوقف لها الوقوف وسجلها على جدرانها، ومازالت قائمة إلى اليوم بالقرب  
من الجامع الذى يعرف باسمه، وفي مدخل ما يسمى بسوق «الشورجة» ويفصل  
بينهما شارع الرشيد أمام المصرف المركزى للدولة الآن.

(١) ابن بطوطة - رحلته.

(٢) المدرسة المنتصرية، الذهبى والأعلام للنهروانى ص ١٧٤.

(٣) قطب الدين النهروانى - الأعلام ص ١٧٤-١٧٥.

(٤) هو مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الأولجايتى - من موالى السلطان - أوميرين الشيخ حسن -  
الأيلخاى، أحد أمراء التتر وكان والياً على بغداد، وبنى مدرسته هذه ودفن فيها.

(الالوسى - مساجد بغداد وآثارها ص ٦٥).

(٥، ٦) بحشل الواسطى فى تاريخه المخطوط عن واسط، وناجى معروف- المدارس الشرايية ج ٢٦٨، ٢٧١-  
والحوادث الجامعة سنة ٦٣٢هـ.

## وفن المآخذ علي النظامية :

وفى الوقت الذى كانت - النظاميات - مثلاً يحتذى فى سمو أغراضها ورقىّ نظم الدراسة فيها فإنها كانت لا تخلو من مآخذ ومخاوف فى هذه الناحية نفسها... وكان أول ما خشيه العلماء من ابتداع «النظام» لمدارسه: منح الأجور للأساتذة والطلاب فصار العلم - فى نظرهم - حرفة وصار أهله كسبة وصار التزاحم عليه لا لشرف العلم وإعلائه ومثوبة الله وإرضائه، بل لتحصيل المنصب والمال وبذلك هبط مستوى العلم كما نزل قدر العلماء.. وهذا ما دفع بفضلاء ما وراء النهر أن يتخذوا للعلم مأثماً وحزنوا على سقوط حرمة حينما بلغتهم أخبار هذه النظاميات<sup>(١)</sup>.

ومما يؤخذ على «النظاميات» كذلك ربط المدارس بدوائر الحكم وعدم استقلالها وخضوع العلم للسياسة ونفوذ الحكام، والسياسة إذا دخلت حظيرة العلم أفسدته إذ إن أول ما تعنى به وتسعى لنشره إنما هو صالح الفئة الحاكمة، والدعوة لها وللمعتقداتها على حساب العلم، وتسخير أقلام العلماء وألسنة الأدباء فى الثناء عليهم، والدفاع عن مصالحهم، وبذلك وصلنا ركام من التأليف والدواوين ازدحمت فى ثناياها عبارات التجليل والتقدیس، وقصائد الإطراء والثناء<sup>(٢)</sup>. كما شهدنا عزل المدرس وتنصيب آخرين فى فترات قصيرة، وقد يتناوب مدرسان على كرسى واحد فى آنٍ واحد بدوافع سياسية.

ويؤخذ على النظاميات ثالثاً أن «الوزير» فرض عليها نمطاً خاصاً من الدراسات فى العقائد والعلوم، فلا يكون المدرس ولا الموظف إلا شافعيًا وهذا يعنى ألا تكون التدريسات فى علوم الفقه وما وراء الطبيعة إلا على مذهب الشافعى فى الفروع والأشعرى فى الأصول وهو طريق لا يمكن للمعارف فيه أن تتسع وللفكر أن ينمو، ما لم تعش فى جوّ حرّ ونقد نزيه.

(١) الصفدى - حوادث سنة ٦٣١هـ.

(٢) انظر: مقدمات الكتب التى ألفت باسم «النظام» وأهديت له كالعقيدة النظامية للجوينى.

غير أن الوزير - فى واقع الأمر - بإنشائه مدارس ومؤازرته لها لم يمنع فتح المدارس للمذاهب الأخرى، ولذلك كانت مدارس الأحناف والحنابلة والشيعة ومساجدهم الى جنب مدارسهم، ولم يكن يضيق بكل هذه المدارس ولا بزعمائها وتلاميذها فإن مجلسه كان منتدى لهؤلاء وأولئك، وكان هو أول من يثير غوامض المسائل الخلافية ليستمع إلى مناظراتهم ومناقشاتهم، ويقرب أصحاب المدرسة الروحية من المتصوفة، كما يدنى منه أنصار المدرسة العقلية من المعتزلة ويشجع أصحاب المدرسة الخيالية من الشعراء على اختلاف نزعاتهم الدينية.

ومع هذا وذاك فقد كانت «المدارس» من خير ما اهتدى إليه العقل البشرى للتفرغ للعلم، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق أهداف «النظام» وغاياته، وكانت الدولة الفاضلة من وراء ذلك كله هى الهدف الأعلى الذى يقصده، والأمل المرجو الذى يبتغيه وينشده. وهذا ما سنتعرضه فى الفصل الثالث من الباب الرابع.

\* \* \*